من الرأس إلى العنق

موجز الفصل

اللحية

إعادة تقويم الأمور

إن إعادة تقويم الأمور هو رسم حدود بين الماضي والمستقبل

الفم

الغيرة

الغيورون مستمعون مخيفون

فهم لا يسمعون إلا ما نسيت أن تقول لهم، ولا يرون إلا ما تحاول إخفاءه عنهم

الشَعر

النرجسية

أضفى التلفزيون صفة القدسية على الحضارة المرئية، وأضحى الجمال مادة استهلاكية مبتذلة للغاية

الأهداب

الرأفة

تذكرني الرأفة بياقات قمصان من عصر آخر ينبغي دائماً تنشيتها حتى لا تكون شبيهة بالعمل الخيري

العنق

الثقة بالذات

النقرة

الثقة بالذات

لا يمكن لمن يسئ الظن بالآخرين بصورة منتظمة أن يثق بذاته

النحر أو الحلق

الخوف

الخوف طاقة أساسية وحافز لجميع صنوف الجرأة التي تقود إلى النجاح

الجمجمة

العظم القذالي

الشك

المرتابون جميعهم نحاف ومن الأفضل عدم الاعتماد عليهم

العظم الجداري

الحِداد

يُصرّف الحزنُ الماضي ويمهد الطريق لمستقبل يختلف دائماً عن المستقبل الذي حلمت به

العظم الجبهي

راجع الجبهة

قمة الجمجمة (اليافوخ)

التطير

عندما تهوي السماء فوق رأسك فإن أول من يتلقى الضربة هو يافوخك

الأسنان

مقاومة الإحباط

من الأفضل للمرء أن يكون مقاوِماً مُحبَطاً على أن يكون مُحبَطاً عاجزاً عن مقاومة الغواية

الجبين

المكان والزمان

ثمة مكان في العقل يتلاقى فيه المكان والزمان ويمتزجان، يسمى الحاضر

الخدان

الحنان

الخدان هما صندوق أمانات القبلات أو الصفعات

الخد الأيمن

الشجاعة

إنه الخد الذي ينبغي للمرء أن يديره لخصمه لكي يتحداه

الخد الأيسر

الكرم

غالباً ما يكون الكرم فعلاً نرجسياً أكثر منه فعل يدل على الرأفة

اللسان

غريزة حفظ النوع

إن اختيار الكلمات أفضل من اختيار الأسلحة

الشفتان

اللذة

اللذة والحظ جنتان تتمنعان على كل من يرفض ثقة الآخرين

الشفة العليا

الكذب أو الغضب

أينبغي أن نكذب لكي نتجنب الغضب أم ينبغي أن نغضب لكي نتجنب الكذب؟

تلك هي المسألة

الشفة السفلى

الجشع

حب الشهوات والحسد هما ثديا الجشع الذي هو أشد الخطايا الرئيسية السبعة قبحاً

الفكان

الثبات

الثبات هو مفخرة غريزة البقاء على قيد الحياة

obeikandl.com

الذقن

التحدي

الحياة التي تخلو من التحديات هي حياة فرد مخصي

الشارب

الارتجال

الارتجال هو المخاطرة بالفوز حيث غالباً ما تفشل الحيَل

الأنف

الفطنة والمهارة

يمكن للفرد أن يمتلك الفطنة والمهارة دون أن يمتلك مع ذلك حس الأعمال

الأذنان

أنانية ومُطالبة

تُشد آذان الصبية الذين لا يفكرون إلا بأنفسهم، الذين يريدون كل شيء مقابل لا شيء، وهم لا يساوون شيئاً على الإطلاق

شحمة الأذن اليمنى

الإيروسية

من دون مساهمة الإيروسية يصبح ما يبعثه الجنس على النشاط مساوٍ للنشاط الذي تبعث عليه ملعقة من زيت الخروع

شحمة الأذن اليسرى

الاستيهام

إن قوة الاستيهام خارقة. إنها تستطيع أن تحط بالواقع إلى مرتبة الخيال السيئ

الجفنان

السعادة

يوجد في كلمة «bonheur» «السعادة» «bonne heure» «ساعة مُبكِرة»، وهذا دليل واضح على أن هذا الإحساس لا يمكن استهلاكه إلا في الزمن الحاضر للصيغة الدلالية.

بؤبؤ العين

الصدق

يعبر بؤبؤ العين عن صدق الانفعالات بمحضر من الكلمات الكاذبة وفي حضرتها

النظرة

«الكرزمة»

تتبع «الكرزمة» من النفس الإنسانية وأكبر الظن أنها البرهان الوحيد على وجودها

الحاجبان

إلهام وإبداع

الإلهام هو تصعيد لعاطفة الحب

الرأس

الرفض

الرفض أسهل دائماً من التفكير بحلول بديلة

obeikandl.com

الوجه

إثبات الذات

يندر أن يتطابق الوجه مع الحقيقة الباطنية. رخام من الخارج وسخام من الداخل

الصوت

وسيلة الإقناع الحصرية

يتحقق ما أؤمن به إذا كانت نبرة صوتي تحمل إيماني

obeikandl.com

اللحية

(موضع إعادة تقويم الأمور)

يغير المرء وجهه ليغير قَدَره

لماذا يبدد الرجال وقتهم في حلق لحاهم؟ يضيّع الرجل الذي يحلق لحيته يومياً منذ كان عمره ثمانية عشر عاماً إلى أن يبلغ الستين من عمره ٢٥٥٥ ساعة، أي ما يعادل ١٠٦ يوماً من حياته في القيام بهذه العملية. يقدم موريس تفسيراً لذلك: «إذا كانت اللحية ترمز إلى العدوانية وإلى هيمنة الذكر، فإن حلقها يومياً يشير إلى الرغبة في التخفيف من حدة هذا التسلط البدائي. يكشف الرجل بلا لحية حاجته إلى التعاون بدلاً من روح المنافسة». أقدم توضيحاً مختلفاً بصفتي أطلق لحيتي، وهو أن جميع الملتحين غشاشون يختبئون وراء لحاهم كي يحافظوا على مسافة للهرب. فهل تكون اللحية إذاً الموضع التاريخي للرجولة المهيمنة؟ كتب جون بولر John Buwler في القرن السابع عشر يقول «إن اللحية عطيّة من السماء، ولا ينشد من يحلقها سوى التشبه بالنساء. وهذا ليس عملاً معيباً فحسب، إنما هو عمل جائر ونكران للجميل نحو الله والطبيعة، إنه عمل يستنكره الكتاب المقدس...» وأظن أنني سمعت كلاماً مماثلاً لهذا الكلام من اليهود المتشددين الذين عرفتهم في الماضي.

اللحية كعلامة دينية ظاهرة للعيان.

تشكل اللحية المشذبة جيداً امتيازاً إغرائياً ونرجسياً.

«بما أن اللحية تشير إلى الذكر فإن تأثيرها الرئيسي هو تأثير بصري، ولكن لها تأثير آخر بصفتها ناقلة للروائح. تمتلك منطقة الوجه عدداً من الغدد، ويعمل الوجه الملتحي على حبس ما تفرزه هذه الغدد من روائح على نحو أفضل. وقد يؤدي ما تفرزه هذه الغدد من زيادة في الهرمونات عند بدء وظيفتها لأول مرة في مرحلة المراهقة إلى اختلال التوازن على مستوى الجلد الذي نسميه حَب الشباب. والمراهقون الأكثر نشاطاً على الصعيد الجنسي هم الذين يعانون من اندفاعات حب الشباب الأشد عنفاً». (موريس، سحر الجسد، دار نشر غراسيه)

وقد تكون لحية المتدينين المهملة غير النظيفة التي تفوح منها رائحة كريهة علامة على الاحترام نحو الله. أفلا يغطي رجل الدين تيهاً وعجباً وجهه بالشعر الكثيف لكي يتماهى بالكلي القدرة؟ من الصعب أن نتصور بأن شخصية جذابة مثل نيكولا ساركوزي تحلق ذقنها وهي تحلم بأعلى مكان في السلطة[1]. تمثل جميع الرسومات العابدة لرب التوراة بريشة فنّاني عصر النهضة شخصيات ملتحية. لماذا كان يسوع يرخي لحيته ولم يكن اللصوص يرخون لحاهم؟ الحق يقال إن حاخاماً أو إماماً من غير لحية هو خروج عن المألوف، وأمثالهما موجودون ولكنهم لا يوحون بالجدية. فهم كالموظف الإداري الذي يعمل في شركة متعددة الجنسيات ولا يرتدي ربطة عنق. تعمر الأفكار المبتذلة طويلاً.

لندع جانباً هذه المنازعات الحمقاء. إن اللحية في نظري هي موضع إعادة تقويم الأمور. يطلق المرء العنان للحيته بعد فشل شريحة من حياته، أو بعد حداد على شخصٍ ما، أو بعد حزن على إفلاس مهني. يغير المرء وجهه ليغير قَدَره. إن هذا التفسير هو بالطبع تفسير معاصر تماماً، وهو يتفق مع عصرنا الذي يفتقر إلى الأمن الحيوي. لقد أطلق جميع أصدقائي الذين أشهروا إفلاس شركاتهم، وجميع أصدقائي الذين انفصلوا عن شريكات حياتهم، وجميع أصدقائي الذين فقدوا عملهم بغتةً لحاهم بلا استثناء لفترة قصيرة أو طويلة. لقد أضحت هذه الكثافة الشعرية العنيدة التي كان لا بد من حلقها كل صباح تنكراً ووسيلة لإخفاء الحداد أو الحزن أو خيبة الأمل. ومن ثم أصبح تقويم الأمور من جديد طريقة سلوكية أو أسلوب عمل. إنها حرية جديدة في الوجود حسب مشيئة الرياح الموهومة.

اللحية «الدارجة»

لم تعد اللحية التي تترك مهملة لمدة ثمانية أيام دارجة كثيراً. فهي تمثل قناعاً ومكياجاً شعرياً للوجه. إن شكل اللحية في طريقه لأن يصبح فناً قائماً بذاته كاللحية المشذبة بالخيط الرفيع واللحية على شكل مدراة ثلاثية واللحية التي تقتصر على الشعر تحت الشفة السفلى والتي تكاد تماثل شعر العانة عند المرأة، ولحية قناع مهرج السيرك. ينبغي تمويه الوجه أو تغيير شكله أو محو عيوبه التي تكاد أن تكون واضحة جداً. وقد درجت من جديد موضة اللحية على الخدين على طريقة الأباتشي ١٩٠٠. لم يعد يحظى الوجه الحليق بالتقدير.

واللحية الكثة لها كيانها، وهي النموذج البدئي الأبوي في مخيلة العامة. هل كان Marek Halter سيؤثر في عقول قرائه لولا تلك اللحية شبه التوراتية التي يطلقها وكأنها علامة

١- سئل مرة بماذا يفكر وهو يحلق ذقنه كل يوم فأجاب بأنه يفكر برئاسة الجمهورية - (المترجم).

تجارية؟ لماذا لا يظهر أي مقدم برامج تلفزيونية أمام الكاميرا بلحية؟ يربي عدد قليل من ممثلي السينما لحاهم لفترة طويلة إلا إذا احتاج دورهم ذلك. ولا يوجد في الجمعية الوطنية (البرلمان الفرنسي) سياسيون ملتحون. إن اللحية الكثة في الواقع قليلة الانتشار عند الأفراد الذين تتسلط عليهم الأنظار أو المشهورين جداً في الأوساط الإعلامية.

هل تنافي اللحية الذوق عندما تظهر على صفحات مجلات الـ Pipole؟ الحق يقال إن معجبيهم قد لا يتعرفون عليهم عندما يظهرون بلحية. وتدفع هذه المجلات سعراً باهظاً لكي تحصل على حق نشر صور النجوم الذين يفتحون لها أبواب الرزق. لا يحب النجوم أن يعيدوا تقويم أنفسهم، ولا أن يتخيلوا بأن الشهرة قد تدير لهم ظهرها على جانب الطريق. فهل هذا هو مبرر غياب اللحية عند منشطي البرامج التلفزيونية؟

يحك جان بيير لحيته كلما توجب عليه اتخاذ قرار فوري. يعمل جان بيير منتجاً تلفزيونياً.

عندما يحك الملتحي وجهه فهو يعيد دائماً تقويم الأمور في ظل لحيته. إذا احتجت إلى تحليل الموقف فأطلق لحيتك إلى أن تعثر على الطريق الجديد الذي سيعيدك إلى جادة النجاح.

الفم

(موضع الغيرة)

هل كنت تعلم ذلك؟ تتوقف درجة ثقتك بذاتك على تواتر حركات شفتيك، فهي مرتبطة إذاً بغنى إيماءات الشفتين (أنظر الجزء المخصص للشفتين).

كلما كانت الشفتان جامدتان عند الكلام كلما كشف هذا الجمود فقد الثقة بالنفس، وغالباً ما يولّد الحاجة إلى إخفاء الفم خلف اليد. تعلم ضبط اللفظ عندما تتحدث وسوف تستعيد بسرعة البرق ثقتك بنفسك.

الفم هو موضع الغيرة، وهو أيضاً فتحة مخصصة للإحساس باللذة عن طريق الطعام (أو لمنح اللذة عن طريق القبلات، على سبيل المثال). يدل الفم الملتوي والشفتان المزمومتان والشدقان المرتخيان إلى فقدان الثقة بالنفس، أو الكره، أو المرارة. إن عدد الحركات

المعيبة التي تقمع حركة الشفتين لا تحصى. من جهة أخرى، نتبين على الفور فم الفرد الذي يؤثر الثقة أياً كانت مورفولوجيا شفتيه: ينسجم فمه دائماً مع باقي الوجه في جميع الظروف. وعندما يتحدث، يميل إلى ضبط اللفظ فيتحرك عدد كبير من عضلات الوجه. يقتضي الشعور بحيوية الوجه عند التحدث جهداً متواصلاً من الانتباه ولكنه جهد مثمر في نهاية الأمر.

نصيحة المعالج النفسي

لهذا أنصحك بتخصيص ثلاث دقائق يومياً لقراءة قصيدة أو نص أغنية تحبها فتقرأ بطريقة مبالغ فيها. وشيئاً فشيئاً تتحرر شفتاك الجامدتان. إن ما يصح على عضلات الجسم يصح أيضاً على عضلات الفم الدائرية.

إخفاء الفم باليد

إن هذه الحركة هي من الشيوع بحيث لا يمكن لأحد أن يتصور ما تعنيه بالفعل. إنها ليست كمامة موجهه لمنع الفم من الكلام. وسواء كان بملقط الإبهام والسبابة، أو بالقبضة المطبقة، أو بالسبابة وحدها، أو بكامل اليد، فإن ذلك لا يغير من معاني هذه اللازمة الحركية. ولكن ما هي المواقف الشائعة التي نضع فيها يدنا على فمنا بصورة غريزية؟ عند الإصغاء. عندما نعيد قراءة نص على شاشة الحاسوب، أو عندما نقرأ كتاباً. عندما نُباغَت. عندما نريد أن نخفي سخريتنا.

عند الإصغاء

إن اليد على الفم إشارة إلى الانتباه المعزز أكثر منها إشارة إلى الخدعة أو اللبس، في هذه الحالة بالتحديد. يتلقى الفم الأمر حركياً بأن يلوذ بالصمت لكي يستطيع العقل تحليل حديث المتكلم.

عند القراءة

لماذا نضع عموماً اليد على الفم لكي نقرأ نص رسالة كتبناها للتو على شاشة حاسوبنا؟ لأنه لا جدوى بتاتاً من الصوت في تصحيح الأخطاء الطباعية في الرسالة المذكورة. أو بالأحرى لأن اليد المكانية (اليسارية) تتيح لنا التركيز بشكل أفضل على معنى النص. وهذه ليست حال اليد الزمانية (اليمينية).

عندما تُباغَت

لأنه عندما تُباغَت بأمر جلل، أو نبأ، أو مكافأة على غير انتظار، تصاب الانفعالات بصدمة. فتمنع نفسك بصورة رمزية عن الصراخ أو تمتنع عن التلفظ بكلمة بذيئة. إنها عموماً اليد اليسارية للفرد اليميني هي التي تقفل الفم بصورة عفوية. وفي هذا الموضع ننصب فخاً للممثلين الرديئين الذين يضعون أيديهم اليمينية على أفواههم ليصطنعوا المفاجأة. بيد أن اليدين معاً تقومان في بعض الأحيان بإخفاء أسفل الوجه وكأنهما يقدمان له قناعاً لا يترك لنا سوى رؤية العينين. تمتص العينان الصدمة ولكن اليدين تحميان الفم بصورة رمزية من هول المنظر.

عندما نحاول إخفاء سخريتنا

هذه خاصة الأشخاص الذين يستنجدون بأيديهم لإخفاء قهقهاتهم. تكشف اليد اليمنى خجلاً أو إحراجاً يقوم المستهزئ بإخفائه. وتكشف اليد اليسرى شخصية مترددة. في هذه المناسبة، تضحك سيلين ديون - المغنية المشهورة - «من كل قلبها» وهي تخفي فمها بيدها اليسرى وتضرب فخذها بيدها اليمنى.

ليس ثمة أثر لسخرية في هذه الوضعية ولكن سيلين ديون مهرجة تحب أن تسخر من نفسها. فالسخرية إذا سلمنا بوجودها هي سخرية من الذات. إن مجرد ضرب الفخذ مصحوباً بالضحك هو إشارة إلى المؤانسة.

وضع اليد على الفم كلازمة ثابتة

تصبح هذه اللازمة الحركية ثابتة أحياناً عند بعض الأفراد الذين تكون حياتهم سلسلة من المفاجآت الحقيقية. لاحظت أن عشرات الخطباء أو الضيوف في استوديوهات التلفزة يؤدون دائماً هذه الحركة باليد نفسها. وعموماً فإن اليد اليسرى التي تخفي الفم هي يد الفرد الانفعالي الذي يفترض فيه الصدق، واليد اليمنى هي يد الفرد الذي يتسم بالغش ويفتقر إلى الصدق.

بعض الأفواه المخفية

يعلم رجال السياسة الذين يحبون أن يكاشفوا بعضهم البعض ببعض التفاصيل، سواء أكان ذلك جهاراً أم تحت أضواء كاميرات التلفزيون، بوجود أخصائيين في قراءة الشفاه يستطيعون حل شيفرة أحاديثهم. ولهذا يتسارّون أمام الكاميرا وهم يضعون أيديهم على أفواههم. وبصورة عامة، فإن الأفراد الذين يخفون أفواههم خلف ستار أيديهم هم من أنصار

ترويج الإشاعات، ومن متعصبي Radio Couloir. فإغلاق الفم الذي تخرج منه الأسرار هو القاعدة أكثر منه الاستثناء. وقد انتقيت الأفواه التي هي أكثر تقليدية من غيرها، وسأبدأ بأبلغها وأشدها قوة:

يضع محاورك وهو مستند على مرفقيه إحدى يديه فوق الأخرى وإبهاماه الاثنان يسندان ذقنه. ويستند الفم على السبابتين الملتصقتين.

نلاحظ هذه الحركة المعاودة عند رجل السلطة. إنه يقيسك بناظريه قبل أن يصرفك أو قبل أن يضعك في موقف خطر. تخيل أن السبابتين سبطانتين لمسدسين من نوع كولت يخفيهما تحت إبطيه في قرابين افتراضيين. تلاحقك عينيه بدقة بينما أنت تتكلم بكل براءة. إنهما عينان قد تقلص بؤبؤهما، ونظرته سوداء كليلةٍ ظلماء أو صافية كالثلج. لقد حكم عليك بالموت وأنت لا تعلم ذلك بعد.

يخفي محاورك فمه خلف يده الطبقة على شكل قَرن (اليد اليمنى أو اليسرى). وهو مستند على المرفق.

تشبه اليد على شكل قَرن القمع الموجه لمنعه من التعبير عن فكره. ينبئك محاورك أن مقابلتك تبدو له عقيمة. تشي هذه الحركة بعداوة حقيقية وتنبؤية تماماً. إن اليد على شكل قرن هي ترجمة حركية لكره مبطن.

يخفي محاورك فمه بملقط الإبهام والسبابة المفتوح كما لو أنه يكمّ أسفل وجهه، وهو مستند على مرفقه. وقد أطلقت على هذه الحركة اسم «الكِمامة».

إذا كانت الحركة باليد اليسرى فهو يحتمي على صعيد الانفعالات من حججك أو من قوة إقناعك.

وإذا كانت الحركة باليد اليمنى فهو يقيسك بعينيه ويبحث عن أفضل وسيلة يخدعك بها. إن الكمامة حركة شائعة وظاهرة للعيان في الحانات الراقية التي ترتادها الكوادر النشيطة وقت تناول الغداء.

يسند محاورك فمه بظهر أصابع يده. وراحة يده متجهة إلى الخارج. وهو مستند على مرفقه.

تخيل هذه الحركة في إطار مختلف كل الاختلاف! الطفل الذي يخشى أن يُصفع. إن هذه الوضعية هي وضعية الحائر في أمره والعازف عن الأشياء بصورة غامضة. لن يستقر محاورك على قرار. ينبئنا هذا المشهد الحركي في لغة الغواية بانعطاف فجائي أو بحب صاعق.

لا تنس البتّة أن معاني الحركات يتغير بتغير الإطار الذي قلدت فيه. تشير أيضاً هذه الحركة الخاصة التي تؤدى في أحايين كثيرة إلى عصاب القلق.

محاورك يستند على مرفقه ويخفي فمه ويمسحه بإحدى راحتي يديه.

الحالة الأولى: تغلق الكِمامة الرمزية كل إمكانية للحوار. إنه يغلق فمه بالمعنى الحرفي للكلمة.

الحالة الثانية: تترافق الجرأة على قطع حبل الصمت الواقي (أو مقاطعة متحدث مجهول أو أكثر) تلقائياً بحركة قمع ذاتي للفم أو للشفتين. ويكاد لا يكون هناك أي استثناء لهذه القاعدة. يعود هذا المشهد الحركي بأصوله إلى بداية الطفولة، وإلى السبابة المثيرة للضحك التي كان يظن أنها تلحم الشفتين الثرثارتين كثيراً.

الغيرة هي من المزايا

الغيرة هي من مشاعر المحافظة على الحياة المفيدة جداً، وليست من العيوب القبيحة التي ينميّها الحساد في كل البلدان. ينبغي ألا تقمع بتاتاً نوبات غيرتك أو تعاقبها، بل ينبغي التعبير عنها جهاراً من دون تعقيد. لا تقل أنك لست غيوراً، أو أنك لست غيورة كهؤلاء المرائين الذين تزدحم بهم استوديوهات التلفزيون، والذين يكنّون الكره لبعضهم البعض. سدد إلى قلب الهدف! الغيرة شعور طبيعي ووقود ممتاز لدب الحميّة بين الجند، ولا تصبح عيباً إلا عندما تختبئ خلف ستار من الإعجاب الزائف. من البديهي أن أثور غاضباً عندما أرى أن كتاباً منافساً يحطم أفضل الأرقام في المبيعات بينما كتابي يراوح في مكانه. ولا عجب أن ينفجر المغني المبتدأ غيرةً من النجم الذي يعامله ببرود. إن هذا من الطبيعة البشرية، ويشكل حافزاً قوياً لطموح المغني الشاب الذي ما زال في بداية مشواره الفني. ليس المقصود هنا طمع الفقير بالغني. لقد فعل الغني ما يتوجب عليه لكي يحصل على الغنى، وربما لا يمتلك الفقير نفس أسلحته. قد يحسد الفقير الغني لكنه بالتأكيد لا يغار منه. عندما أتكلم عن الغيرة أقصد هذا الشعور الذي تحس به نحو زميلك الذي كان نجاحه أفضل من نجاحك بنفس المؤهلات في البداية. وأقصد الطالب الذي لم يأل جهداً للحصول على شهادة الثانوية فيفشل أمام زميله الذي لا يدرس بصورة جدية ويفوز فوزاً مجلياً. على الغيرة أن تؤكد ذاتها على هذا المستوى لكي تساعدك على النجاح. وعليك أن تستعين بهذا الشعور كما يملي عليك ضميرك من أجل تعزيز جهودك. كلا يا سيدي، ليست الغيرة نقيصة بل هي ميزة أساسية ينبغي أن نصونها.

يحق لنا أن نغار من صديق طفولتنا الذي أسر قلب أجمل فتاة في الصف. ومن الممكن أن نغار صراحة من بنت الذوات الخرقاء بعض الشيء التي أغوت أجمل شاب في المجموعة. ينبغي ألا يخجل المرء بتاتاً من شعوره بالغيرة بل عليه أن يجعل منها جسراً ليحقق أفضل ما حقق الآخر، ويمضي قدماً. ولكن لا تخلطن بتاتاً بين الحسد والطمع والغيرة، فالحسد هو غيرة العاجزين، والطمع هو حسد المتبطلين. أما الغيرة فهي محرك تقدم الفرد.

الشَعر

(موضع النرجسية والصورة العامة)

الشعر موضع الصورة العامة، وهو صالح لجميع التقييمات بفضل الزيارات المتكررة للحلاق، وهو يُحسّن المظهر الجمالي للوجه فيمنحه إطاراً يمحي جميع عيوبه أو يخفي الأذنين البارزتين. تزدان جلدة رأس الإنسان بما يقارب مئة ألف شعرة. والشعر الفاتح أغزر من الشعر الداكن. يرى ديزموند موريس أن رأس الفرد الأشقر يمتلك ١٤٠٠٠٠ شعرة. والأسمر ١٠٨٠٠٠ شعرة. والأحمر ٩٠٠٠٠ شعرة، وهذا مع ذلك أقل من الشعر الأشقر بنسبة ٣٦٪. هل هناك تفسير علمي لهذا الاختلاف؟ غالباً ما يقرن الشعر الأحمر بالجنسانية المفرطة. هل لهذا أساس من الصحة أم أن ذلك خرافة أطلقها ذوو الشعر الأحمر الذين غالباً ما يتعرضون للسخرية في مجتمعاتنا الغربية؟

الشعر في أثناء الحداد

عندما يصمم المرء على تغيير مجرى حياته، فمن الضروري طبعاً أن يغير شكل رأسه. ولهذا تدل عموماً تسريحة الشعر القصير الصبيانية على امرأة قد تحررت من ماضيها. لقد أسدلت الستار على شريحة من حياتها انتهت لتوها. وقد يكون هذا الحداد مرتبطاً بعلاقة انتهت بالفشل أو بالحاجة إلى إطلاق وجهها بعد تبدل جذري حديث كالمرض أو الانفصال. وتسريحة القنفذ الرائجة كثيراً عند المتسخين في مستهل القرن الحادي والعشرين؟ إن هذه التسريحة عبارة عن شعر قصير ينتصب في جميع الاتجاهات بفضل جل فعال. إنه القنفذ الذي يحمي نفسه بوساطة أشواكه. إن هذا النوع من تسريحات الشعر علامة على الرفض، رفض الفرد أن يكون حبيساً في قالب يفرضه نموذج أحادي الشكل.

وقد تشير هذه التسريحة أيضاً إلى أن الفرد يعيش فترة حداد وجدانية. هل المرأة أشد حساسية من شريكها للقطيعة بين الماضي والحاضر؟ ليس بالضرورة. تحتاج المرأة لأن تعيد خلق صورة جديدة لنفسها حتى تستطيع أن تباشر شريحة حياتية جديدة. فتغيير تسريحة الشعر هي وسيلة لتغيير كيانها تغيراً كلياً. ويطلق الرجل لحيته أو يحلق شاربه القديم المشؤوم الذي يصحبه في كل مكان منذ زواجه. يحتفل كل منهما بالقطيعة على طريقته الخاصة. زيادة في شعر الذقن هنا، والتقليل من شعر الرأس هناك. إن النظام الشعري قابل للتحول في جميع المناسبات، وهنا تكمن ميزته الأولى والسبب الأكيد الذي يجعله يرافق بصورة عامة تقلبات الحياة.

إن الشعر سلاح من أسلحة الوجه الاغرائية. والعلاقة بين الفرد وشعره هي علاقة نرجسية وشهوانية. فكلما أولى الفرد أهمية لشعره كلما انتمى إلى فئة الأشخاص الذين تتمحور حساسيتهم حول أناهم، باختصار شديد يُعنى محاورك بصورته العامة. يعتبر الشعر وسيلة للعودة إلى الصبا أو للمحافظة على هذا الصبا الذي يهرب منا كقدر محتوم. نوظف فيه طاقتنا الانفعالية فنفقدها أحياناً بصورة آنية في حالة الحداد الوجداني، أو بصورة نهائية بالنسبة للرجال عندما تصبح الحياة اليومية مزروعة بالعقبات ومصدراً للتوتر الشديد. إن تسريحة الشعر علامة قوية على الغواية ووسيلة لكشف الجو العقلي الآني الذي تسبح فيه عواطف صديقك أو صديقتك. وكذلك الحال فيما يخص لمعان الشعرة والحالة العامة لمظهرها. وعلى العموم، ترتبط طريقة تسريحك لشعرك بما يجري في عقلك[1].

الشعر المحجوب

صحيفة J.D.D. بتاريخ ١٩ تشرين الأول ٢٠٠٣

«يعرب الأساتذة الجامعيون عن قلقهم إزاء الضغوط التي تمارسها الجمعيات الإسلامية منذ بضعة سنين: تنوية الهيئات الانتخابية، تعليق الدروس من أجل الصلاة، تنظيم معونات لصالح الحركات الأصولية، مَعارض معادية للسامية، تحريم موضوعات درسية». وتثير الصحيفة في مكان آخر حالة ليلى وألما، وهما فتاتان من أصل يهودي وإسلامي تصران على الاحتفاظ بالحجاب لإخفاء آذانهما وشعرهما وعنقهما، ولا يخفى على أحد أن هذه الأجزاء التشريحية مثيرة جنسياً، إذاً هي أجزاء من جسد المرأة لا يليق كشفها.

١- لمعرفة تفسير تسريحات الشعر النسائية المختلفة أحيلكم إلى كتاب «Ces gestes qui vous séduisent».

يدعو هذا الكلام للسخرية، لكنني أعتقد أن هذا النهي الديني يخفي حقيقة تغيب عن ذهننا بصفتنا أفراداً في المجتمع الغربي الذي يبيح كل شيء ويتجه بقوة نحو «تحرير المرأة». ألا يزعجك هذا التعبير؟ ومع ذلك هو تعبير مثير للاهتمام. وكأن النساء كن سجينات السلطة البطريركية. الحق يقال إن الشعر جزء تشريحي مغوٍ عند المرأة بسبب تحولاته. وتُقرن الأذنان والعنق بشكل واضح مع وسائل إغراء تشريحية يرغب المسلمون المتشددون بإخفائها عن أعين الجميع. إن المرأة في تصورهم شيء ثمين ينبغي أن يخفوه كما يخفون كنزاً، وأن يحموه من أعين الآخرين. والمرأة في نظر المجتمع الغربي بطاقة دعوة يجب إظهارها والتدليل على مفاتنها الأكثر دقة بوساطة رموز جريئة تتعلق باللباس.

وتشكل قصة الشعر في هذه الرموز امتيازاً جوهرياً. ومن هنا العدد المتزايد لصالونات الحلاقة.

إن ثقافة الحب عند المسلمين هي ثقافة استثنارية بامتياز. والحجاب هو وسيلة للحماية وليس أداة للتحدي والدعاية المغرضة. وقد أصبح الحجاب رهاناً لأن الدولة شبّت على دوابرها لفرض احترام قوانين الجمهورية. ومرة أخرى ننخدع بحقيقة المعركة، فليس الحجاب هو الذي يخلق المشكلة، وإنما المشكلة في الأئمة المتطرفين الذين يجدون تربة خصبة للإرهاب في شريحة من الناس لا يلتفت أحد إليهم في ضواحيهم. «و لكن أموال زائدة عن الحاجة، وكماليات، وأشياء جميلة جنباً إلى جنب مع البؤس والعذاب وخيبة الأمل، لأن الطبقة الغنية فاحشة الثراء، ولأن الطبقة الفقيرة في منتهى الفقر، وكلاهما لا يتعايشان.[1]»

لماذا نرى سكان الفضاء صُلعاً في معظم الرسومات التي تصورهم؟ فهل الشعر علامة مميزة للجنس البشري كما هو الأنف؟ وهل له وظيفة تشريحية محددة غير وظيفة تأمين حمايتنا من أشعة الشمس مادام في استطاعتنا الاستغناء عنه تماماً؟ لطالما خاف الإنسان من غزو كائنات فضائية. تمثل النساء هذه الكائنات الفضائية التي تنشر الخوف بين أظهُرِنا. فهن بلا شعر مثل الرجال الخضر أو الزرق ذوي القامة القصيرة.

الشعر والسلطة

يحتفظ غالبية الرجال ممن يملكون سلطة حقيقية (مدراء عامون، إداريون كبار، رياضيون) بشعرهم الكثيف حتى سن متقدمة. ولا ينتمي السياسيون إلى هذه الفئة طالما أن سلطتهم غير مرتبطة بجدارتهم الشخصية بل باختيار الناخبين. هل هناك صلة حقيقية بين

1- La Voyageuse, Andrea H. Japp, Flammarion.

قوة شمشون والسلطة المكتسبة بعد جهد طويل؟ لماذا الرؤساء الأمريكيون يماثلون المدراء العامين الفرنسيين؟ بوب وروبير كينيدي، كارتر، ريغان، كلينتون، بوش، كيري، إلى آخره...

لماذا يفقد معظم السياسيين الفرنسيين شعرهم؟ ليس لفقد شعره فيما وراء الأطلسي القيمة نفسها في ديارنا. فإذا كان الرأس الأقرع كارثة حقيقية في بلد بيل غيتس، فهو مقبول جداً تحت سمائنا.

إن الصورة العامة طاقة أساسية ومادة غذائية ممتازة لتسريع نمو الشعر بصورة منتظمة. وهي تضاهي في قوتها قوة الحب. عندما يكفّ الفرد عن حب ذاته يطلّق فرص نجاحه ويفقد سلطته الاغرائية. وقد يكون سقوط شعره المبكر ناجماً عن شكل من الأشكال الاستسلام أمام الحياة.

مما لا شك فيه أن الوراثة تتحكم على نطاق واسع ببعض أنواع سقوط الشعر، فليس لها إذاً أيّ صلة بجدارة الفرد أو بكفاءته على النجاح الحيوي. ولكن؟

هل يمكن أن يكون هناك علاقة سببية بين الزعامة وبين نمو الشعر؟ أم أن الأمر يتعلق بميزة من ميزات الكرزمة الجانبية؟ قد يكون هناك طريق يجب أن نسلكه ولكن على علم الجنس الجديد أن يؤكده. كان السياسيون دائماً مستهلكين كباراً للجنس، أي منتجين كبار للتستوسترون (الهرمون الذكري). لا توجد إحصائيات حول عدد النساء (أو الرجال) اللاتي يعشن حياة هامشية في فراش وثير بفضل سخاء عشيق موسر، وهو من جهة أخرى متزوج من زوجة (أو هي متزوجة من زوج) زواجاً قانونياً. إن هذه الظاهرة ليست جديدة. تنتج الحاجة إلى الجنس عن التوتر في السلطة وعن المسؤوليات المتولدة عنها، وللعلاقات الجنسية مفاعيل متعددة: مفعول مضاد للاكتئاب، ومفعول مضاد للقلق، ومفعول مضاد للتوتر، ولم يعد هناك حاجة إلى البرهنة على ذلك.

يقبل عدد كبير من نجوم الأغنية بعروض المعجبين الجنسية غير المقنّعة بعد نهاية الحفل للتخلص من توتر يكون مخيفاً في بعض الأحيان. إن هذا الموقف (غير الأخلاقي من حيث المبدأ) هو أفضل طريقة لمحاربة مرض خصوصي جداً يجهله الجمهور، ألا وهو كآبة نهاية الحفل. يُعتبر الظهور على خشبة المسرح لحظة تنبه وقلق مطلق لأي فنان كان. عليه أن يغوي ويرضي جمهوراً ينتظر دائماً المزيد من معبوده. يكون الضغط في أعلى ذروة له، وخصوصاً أن إسدال الستار صعب لا يطاق. فمن شأن علاقة جنسية سريعة أن تحارب محاربة فعالة الكآبة التي تصيب الفنان على حين غرة.

العودة إلى شعر شمشون

الشعر موضع النرجسية والصورة العامة التي ليست سوى مرآة لصورة الذات. نرجسية أم حب صورته الذاتية! هل هذا أمر عديم الشأن؟ لم تعد النرجسية تعتبر تضخيم للأنا في مجتمع مرصود للصورة البصرية ولدكتاتورية الطلّة. على المرء أن يتصف بصورة جمالية رائعة لكي يقع من نفوس الآخرين موقع الإعجاب، وينتمي الشعر إلى هذه الصورة. وإذا انتفى الشعر البراق فالرأس العاري المحلوق حلاقة جيدة وحزمة من الشعر تحت الشفة السفلى مشذبة جيداً هما ما يوحي بذلك تمام الإيحاء.

أريد أن أصدق أن قصة شمشون المؤسفة التي وردت في التوراة فيها شيء من الحقيقة. لقد فقد قوته لأن عشيقته دليلة قصت له خصلات شعره في أثناء نومه. إن هذه القصة التوراتية رمزية جداً. فالقوة والسلطة قد خرجتا من قالب واحد. تشير الرسالة إلى أن من يفقد شعره يفقد سلطته على قدره. ومن حسن الحظ أن العلم يقدم لنا اليوم إمكانيات متعددة لاستعادة شعر حقيقي عن طريق عملية زرع الشعر الميكروية. باختصار، لم يعد الصلع حُكماً بالموت على سلطة الغواية عند الذكر. فأمثال شمشون يستطيعون اليوم استعادة قوة شعرهم من جديد (ومعها السلطة) بخضوعهم لعملية جراحية.

من الممكن أن يُعاقب الشخص الذي يخون نفسه بتساقط شعره. وخيانة الشخص لنفسه هي قبوله بلعب دور ليس دوره لأسباب مالية، وليس لأسباب تتعلق بالبقاء على قيد الحياة. يود معظم الموظفين الذكور أن يعيشوا حياة غير تلك التي يعيشونها. وقد أثبتت الإحصائيات أن عدداً قليلاً منهم يحتفظون بشعرهم الكثيف حتى سن التقاعد. فلعل الغذاء الحقيقي لجلدة الرأس هو التوافق بين ما نفعل وبين ما نكون، وليست هذه حال غالبية الناس. بيد أن هناك استثناء فقد لاحظت أن الغالبية العظمى من المتشردين في الشوارع يحتفظون بشعورهم التي وخطها الشيب أحياناً على الرغم من أن ظروف حياتهم يرثى لها، وقد حيرني هذا الأمر. قمت بتحليل سلوكهم على أرض الواقع فأدركت أن معظمهم ليسوا تعساء بالدرجة التي نتصورها. لقد اختاروا أن ينبذوا أنفسهم من المجتمع لكي يحرروا رقابهم من التبعات، فلا يعود هناك أوقات دوام أو ضغوط، ولا يعود هناك بريد أو عنوان، ولا يعود هناك هموم أو مشكلات تحتاج إلى حلول. لا يتأمل المتشرد في مصيره، ولا يفكر في غده، بل يعيش كفاف يومه. فلِمَ يتساقط شعره؟ إن الصلع المبكر أو غير المبكر هو اضطراب الرجل الذي يفكر وليس اضطراب الرجل الذي يفعل.

أدعك بإزاء هذه الفرضية الأساسية التي لم أجد لها حلاً حتى الآن، ولكن يجب أن أُقر أن جل ملاحظاتي تقود إلى هذا التساؤل الوجودي: فيلسوف برأس أصلع أم ربّ عمل برأس مشعر؟

الأهداب

(موضع الرأفة)

تُقرن الأهداب بنرجسية الطفل البدائية (يُتباهى بطول أهدابه، ويصبح راشداً فيعنى كثيراً بصورته الاجتماعية). يبلغ عدد الأهداب المحيطة بكل عين مئتي هدب، وتُعمر من ثلاثة إلى خمسة شهور قبل أن تحل محلها أهداب جديدة. ويطول عمرها بقدر ما يطول عمر شعر الحاجبين. تلفت النساء ذات الأهداب المفرطة في الطول الانتباه إليها (إلى الأهداب) بمكيجتها بوساطة المَسكَرا لكي تستطيل قدر الإمكان. فيقال أن لهن عيون كعيون الغزلان أو كعيون الألعاب المصنوعة من البورسلان.

وتميل النساء إلى الرمش بعيونهن لكي يظهرن بمظهر الساذجات، ولكنهن بصور عامة داهيات أكثر منهن ساذجات. احذر الأهداب المفرطة في الطول فهي تتصف بالمكر الشديد، والنظرات التي تخفيها تكون في بعض الأحيان ماكرة جداً تحت مظهر من السذاجة الشديدة للغاية.

هل لأن الأمر يتعلق بخاصية إنسانية في جوهرها كانت التصورات الإنسانية عن الكائنات القادمة من خارج كوكب الأرض مسلوبة الأهداب والحاجبين؟ نعلم أن الحاجبين يستخدمان كإشارات، فماذا عن الأهداب؟ فهل هي مجرد حافة تحمي العين وتحيط بها؟ أليس الجفن هو الذي يقوم بهذا الدور؟

يكاد لا يكون للأجناس البشرية ذات العيون المائلة في القارة الأسيوية أهداب. فالعيون محمية بفضل تحدب الجفون. وكلما كانت العينان بارزتين (ويقال جاحظتين) كلما كانت الأهداب طويلة وغزيرة. نفهم من هذا التفصيل أن الأهداب قد تشكل حماية إضافية ولعلها فقدت منفعتها مع التطور الوظيفي للجفون. إن طول الأهداب تفصيل مورفولوجي يستوقف النساء على وجه الخصوص.

وتساعد المسكرا والأهداب المستعارة على تكبير العيون الصغيرة أو على جلائها.

إذا كان للأهداب من وظيفة فهي تشير إلى الرأفة. تعمل الأهداب على حبس الدموع فتضفي على النظرة الإنسانية رطوبة مصطبغة بالرأفة نجدها في أحايين كثيرة عند العشاق

الذين أصبحوا لتوهم من ضحايا الحب من النظرة الأولى. فهل هي وظيفة وقائية ترمي إلى إثارة شعور الرأفة عند معتدٍ محتمل؟ ولم لا؟ وهذا ما يجعل من الأهداب موضعاً للرأفة.

استطعت أن ألاحظ بأن تواتراً عالياً من اختلاج الجفون (و الأهداب لا محالة) يكشف شخصية أشد إحساساً بالرأفة من الشخصية التي تتصف بتواتر ضعيف لاختلاج جفونها. الحق يقال أن هذه الاختلاجات الجفنية لا تسترعي الانتباه لأنها تحدث بصورة خفية.

يعتبر فرانك كارلوتشي من الفاعلين الكبار في اقتصاد الحرب الأمريكية، وهو عرّاب صناعة الأسلحة الحربية، وصديق عزيز لجميع السياسيين الطامعين.

استجوب أكثر من مرة في إطار فيلم وثائقي ينتقد بشدة الرئيس بوش، فلوحظ أن هذا الشخص الذي يوزع وظائف بلا عمل في واشنطن يتكلم دون أن ترف عيناه. لقد كانت نظرته جامدة غير معبرة، وهذا أكبر دليل على خلوه من الرأفة.

وقد ثبت لدى الباحثين أن اختلاجات الأهداب المتقطعة إنما تنجم عن اضطراب انفعالي أو وجداني، وخصوصاً عندما يتلقى أحدهم خبراً مباغتاً مفرحاً أو محزناً.

عندما يتحاب شخصان من النظرة الأولى، يزداد دائماً تواتر اختلاجات جفونهما قبل القبلة الأولى تماماً وخصوصاً عند المرأة. ويقترن اختلاج الأهداب أيضاً برفُّ العين.

الغمز بالعين

يمكن وصف الغمز أساساً على أنه «إغلاق العين باتجاه ما». فإغلاق العين يوحي بالفعل أن السر لا يتجه إلا للشخص الذي ننظر إليه. وتبقى العين الأخرى مفتوحة للآخرين الذين أقصوا عن هذه الحميمية العابرة. لا يغمز المرء بتاتاً بالعينين بالتناوب، وإنما يغمز بهذه العين أو تلك تبعاً للسياق أو للشخص الذي تتوجه إليه الغمزة.

الغمز بالعين اليمنى

تعني هذه الغمزة: «أنت تروق لي»، ولكنني لا أجرؤ على مكاشفتك بذلك، لا بل أنني لست مدركاً حقاً. الحق يقال إن الغمزة تحدث بسرعة كبيرة وبعفوية تامة. ويمكننا أن نضبط آليتها ولكن النبأ الأكثر إثارة للاهتمام يأتي بالطبع من غمزة العين المرتدة، من غمزة من استهدفته. بالطبع، إذا وجه إليك فرد من جنسك غمزة فاتنة فلا تتصور على الفور أنك بإزاء أحد المثليين جنسياً Homosexuel

إذا كنت أنت من الغيريين جنسياً hétérosexuel. إن غمزة العين اليمنى مغوية بالمعنى الشامل للكلمة، وهذا يعني أنها تعبر أيضاً عن رسالة من دون تضمين. في هذه الحالة بالذات: «أنا أقدرك».

الغمز بالعين اليسرى

هذه الغمزة هي أشد رأفة وأكثر مشاركة، وهي تترجم التواطؤ بين شخصين دون أن تتضمن الغواية. يسبب النشاط الحيوي لغمزة العين ارتفاعاً طفيفاً للخد ولزاوية الشفتين المطابقة، وهذا ما يفسر أن حركة التواطؤ هذه لا تحدث إلا في جو من المحبة أو التقمص العاطفي.

العنق

(النقرة)

الثقة بالذات

العنق هي الممر الضروري للارتباطات الحيوية بين الفم والمعدة، بين الأنف والرئتين، بين الدماغ والعمود الفقري أو القلب. وهي قناة أساسية على الصعيد التشريحي، وتتيح مجموعة عضلاتها المعقدة للفرد أن يهز رأسه ويديره ويحركه ويثنيه، إلى آخره... فالرأس موصّل لرسائل اجتماعية جوهرية على الصعيد الحركي.

وإذا رجعنا إلى لغة الجسد الرمزية نجد أن النقرة هي موضع الثقة بالذات. في الواقع، يقع هذا الجزء من العنق المتمثل بهذا الجو العقلي المثالي الذي ننشده جميعاً في موضع فقرات الرقبة السبعة الأخيرة من العمود الفقري كما سبق وذكرت في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وهذا يعني أننا يجب أن نولي لغة النقرة الحركية ما تستحقه من أهمية.

عندما يشبك محاورك أصابعه فوق نقرته

فهو يخبرك بحاجته إلى الانتهاء من الموضوع بأسرع ما يمكن. لقد تزعزعت ثقته بنفسه. يعتقد ممارسو طقس الفودو[1] في هاييتي أن الروح تسكن في النقرة. وقد يكون هذا الاعتقاد هو ما دفعهم إلى استخدام العقود في أعناقهم لكي تحميهم من التأثيرات الشريرة.

تعتبر العنق في الحركات الإيقاعية، كما في طريقة ماتياس ألكساندر العلاجية، المفتاح الذي يسمح بتحريك بقية الجسد. وقد ابتدع ماتياس ألكساندر علاجاً يقوم على فكرة أنه بتغييرنا لوضعية العنق فوق الكتفين لا نشفى من بعض الأعراض الفزيولوجية فحسب،

١- وهو من الطقوس الإيحيائية (نسبة الحياة لغير الأحياء)، وهو منتشر بين السود في هاييتي وجزر الأنتيل - (المترجم).

وإنما نبرأ أيضاً من عدد كبير من التوترات أو الاضطرابات النفسية. فبالعودة إلى ما ذكرته للتو يصبح من السهل أن نفهم الرابط الرمزي الذي أقترحه بين الثقة بالذات وبين النقرة.

يتعرض الجسد في التنويم المغناطيسي الذاتي الوضعي، وفي أثناء ممارسة الغشيات التفريغية لارتكاسات تشنجية دون مشاركة طوعية من الفرد، وتنتهي الغشية دائماً بسلسلة من الحركات للنقرة ذهاباً وإياباً. والتواء العنق هو إشارة قوية على إصابة اعتيادية. فإذا تعرضت لهذا النوع من الاضطراب، يمكنك أن تعتبر أن لا شعورك يحاول أن يلوي عنق فقدان ثقتك بذاتك. «لقد أخفقت غير مرّةٍ في أعمالي، وقد سببت لي هذه الإخفاقات المتتالية التواءات عنقية متسلسلة. وكنت أتساءل دائماً إن كان هناك رابط سببي بين التواءات عنقي وإخفاقاتي؟»

أخبرني بهذه التفاصيل أحد المرضى الذين كنت أعالجهم. وكانت حالته هي سبب اهتمامي الخاص بهذه الإشارة النفسية الجسدية القوية للغاية. من منا لم يشتكِ قط من التواء عنقه؟ المشكلة هي أننا لا نتذكر بتاتاً الظروف التي حدث فيها التواء العنق. وقد عكفت أيضاً على دراسة الضربة المفاجئة على عضلات العنق التي يذهب ضحيتها بعض المصابين في حوادث السير. إنهم يضعون جهازاً لحماية فقرات العنق المصابة. كان جميع الأفراد الذين سنحت لي الفرصة باستجوابهم يعانون حقيقة من مشكلة فقدان الثقة بأنفسهم. فما هي الصلة بحوادث السير؟ يبقى السر قائماً إذ أنني استجوبت أيضاً أشخاصاً آخرين كانوا ضحايا حوادث خطيرة ولكنهم لم يشتكوا قط من ألم في فقرات العنق. يبدو أن نقراتهم قد قاومت الصدمة.

وباستقبالي ذات صباح طالباً (يدعى جيروم) في حالة فشل تام توصلت إلى قناعة بأن النقرة هي بالفعل موضع هذه الثقة اللعينة بالنفس التي نعزها جميعاً. لم يكفّ عن القول إنه ليس جديراً بالثقة، وإنه قد فقد ثقته بذاكرته وذكائه. كان يتكلم عن ملكاته الفكرية وكأنها لا تنتمي إليه. وكان هذا الشاب يعاني للغاية من ألم في فقرات العنق، وكان هذا الألم المزمن قد بدأ عندما رسب في امتحاناته النهائية في السنة الجامعية الأولى. أجريت له صور شعاعية وصور بالإيكو وكانت النتيجة سلبية. احتل جيروم دائماً المرتبة الأولى في صفه منذ المدرسة الابتدائية حتى المدرسة الثانوية. وقد قصم أول فشل له في الجامعة ظهر ثقته بنفسه بصورة فظيعة، وصدم صدمة مباشرة في حياته كراشد! وأصبحت ثقته بنفسه أثراً بعد عين! كانت صورته عن نفسه صورة طالب مثالي: «لقد تولد عندي انطباع بأن رأسي قد قطع بالمقصلة، قال لي والدمع يتناثر من عينيه. استقرت آلام الرقبة في غضون ليلة ولم تفارقني منذ ذلك الحين».

إن النقرة جزء أساسي من الجسد، وغالباً ما ندخل معها في نزاع دون وعي منا.

حركات النقرة

أعود بادئ ذي بدء إلى شبك أصابع اليدين فوق النقرة. يتعلق الأمر مسبقاً بتأثير رمزي من قبل الفرد الذي اتخذ قراره دون أن يخبرك به على الفور. وعبثاً تريد الاستمرار في إقناعه، فالأرض سوف تغور تحت قدميك. لقد تكونت لديه قناعة سيبقى متمسكاً بها بقوة أياً كان استنتاجك. ويصطنع أيضاً وضعية الهروب أمام التوتر فيتظاهر بالحاجة إلى الاسترخاء أو الهروب أمام الآخر ومطالبه. وبما أن النقرة هي الموضع الرمزي للثقة بالنفس فإننا نشبك فوقها أصابع أيدينا عندما تتزعزع هذه الثقة.

يمسك محاورك نقرته بيده اليسرى أو اليمنى.

يالها من مفارقة! إن هذا المشهد الحركي هو رمز «طقس جميل». تتبنى هذه الحركة أحياناً بنجاح الحديث.

يداعب محاورك نقرته (أو عنقه) بصورة داهلة.

إنه يزن نتائج مشروعك.

يستند محاورك على مرفقيه ويحوط نقرته بيديه وهو يسند رأسه.

هو على يقين من أنه لا يتوجب عليه احتمالك. يشعر أنه ليس معنياً بكلامك ويأسف لكونه خصك بوقته أو لكونه كلف نفسه عناء مقابلتك. إن هذه الوضعية هي أيضاً وضعية الانهزامي.

يتطاول محاورك بعنقه بطريقة مبالغ فيها.

نجد عادة هذه الوضعية في اللغة الحركية للتلاميذ الذين يجلسون في الصفوف الأولى من الصف، فهم يحلمون أن يرتفعوا إلى مستوى الأستاذ أو أن يتطاولوا بأعناقهم فوق بقية تلاميذ الصف.

يدخل عنقه بين كتفيه.

لا يحس أنه بالمستوى المطلوب عن حق أو عن غير حق. يتصف كثير من الفنانين الشباب حديثي العهد بالشهرة بهذه العُرّة السيئة التي تشتمل على إدخال الرأس بين الكتفين عندما يغنّون أمام الجمهور أو عندما يقوم أحد مقدمي البرامج باستجوابهم.

النحر أو الحلق

(موضع الخوف)

تشعر بانقباض في حلقها. لم تعد تستطيع الرد على النميمة التي تستهدفها.

يعتبر علماء الأعصاب الحلق موضعاً للقلق، ويمكن ربطه أيضاً بالحزن والسوداوية. «أشعر بانقباض في حلقي»، أو «أحس بجفاف في حلقي»، أو «أمسكوا به من حلقه» عندما يُرغم الدائنون أحد المدينين على الإفلاس. إن من اللازمات الحركية المعروفة جداً عند الشخص الذي استولى عليه القلق هي أن يطوق أسفل عنقه بيده اليسرى. إن هذه الحركة هي حركة القلق بامتياز، وترجمتها على الشكل التالي: «أتوجس خيفة مما سيحدث لي».

بعض حركات القلق الشهيرة

يضع سبابته أفقياً على تفاحة آدم إنه يقطع حبل وريده بالمعنى الحرفي للكلمة.

تكشف هذه الحركة فرداً يواجه مشكلات.

يطوّق نحره بيده اليمنى أو اليسرى.

لا تطوق اليد بتاتاً النحر دون أن يطفو إحساس قديم بالخوف على سطح الشعور. إنه بلا شك الخوف من أن يُدقّ. ولكن إذا كان محاورك يضع في أغلب الأحيان إحدى يديه على نحره فقد تشير هذه العُرّة الحركية إلى عصاب القلق. أما إذا كان يضع يديه الواحدة فوق الأخرى على النحر، فإن هذه الحركة تشي بفرد متطيّر بقدر ما تشتهي. والنحر هو أيضاً الموضع الخاص بمخاوف الطفولة.

تذكر في الختام أن جميع الحركات التي تفضي إلى النقرة لها صلة بدرجة الثقة بالنفس أو بدرجة فقدان هذه الثقة. أما جميع الحركات التي تتضمن النحر فتكشف قلقاً أو خوفاً ما.

الجمجمة

(الشك ، الحداد ، التركيز ، التطير)

المنطقة القذالية: موضع الشك

هل كنت على علم بذلك؟ غالباً ما يكون العجز عن اتخاذ القرار أو الصعوبة في اتخاذه سبباً في التهاب مؤلم لفقرات العنق. يقع المخيخ في المنطقة الخلفية من الجمجمة، وهو موضع الآليات التي تخفف من وطأة الترسيمات الإرادية.

يكشف حك العظم القذالي

جواً ذهنياً يرتع فيه الشك. ويترافق هذا الحركي أيضاً مع حساب ذهني وعملية تذكر في حالة توتر، مثل محاورك الذي يحك جمجمته بقلمه علامة على حيرته.

«هل كان حسابي صحيحاً؟ لنرى ذلك!».

العظمان الجداريان: موضع الحداد

يعشعش الحزن والسوداوية فيهما. ينم مجرد سند المرء لرأسه في هذا الموضع عن ذهن مثبط الهمة، لا بل ينم عن ذهن انسحابي.

ثمة وضعية تخص العظمين الجداريين، وهي تتلخص بإمساك الفرد لجمجمته بين يديه. نلحظ هذه الحركة عند الناجين من الكوارث. وغالباً ما لاحظت هذه الحركة في المحاكم حيث يكون الأشخاص جالسين على المقاعد الخشبية ومستندين بمرافقهم على أفخاذهم وأيديهم مثبتة على جماجمهم. يوحون لك أنهم يحملون بؤس الإنسانية بأكمله فوق رؤوسهم. إن العظمين الجداريين هما موضع الحزن، وتستجيب أحياناً الحاجة إلى وضع اليدين عليهما إلى اعتراف الفرد بغلطته.

عظم الجبين

عندما نضع يدينا على جبهتنا وكأنها كمادة، فهناك خطر حقيقي. ينزلق الذكاء ويعدو المنطق مسرعاً وتوصد أبواب الخروج. وتتخلى المعنويات عن مكانها للسوداوية ويتشتت التركيز في الجهات الأربعة. (راجع الجزء المخصص للجبهة من هذا الفصل).

اليافوخ (موضع التطيّر)

اليافوخ (أو قمة الجمجمة) هو موضع الشعور بتفوق الإنسان، وموضع الشعور الإنساني، وربما بالتعميم أيضاً موضع الروحانية. وهو على الأخص موضع التطير. دق على الخشب!

هل أنت محظوظ؟ إذا أقصينا تدخل المصادفة بصفتها تتحكم بالسرّاء والضرّاء، لأمكن اعتبار الحظ ريح طاقة إيجابية مرتبطة بدرجة تفاؤلك. يلمس الفرد جمجمته إذا لم يستطع أن يلمس الخشب لكي يجلب لنفسه الحظ. تدل القبعة التي يضعها اليهود باستمرار على قمة رؤوسهم على الاحترام الديني. إنها تغطي اليافوخ. وينزع المسيحيون قبعاتهم عن رؤوسهم في بيت الله، والمسلمون أحذيتهم قبل دخول المسجد. وسواء نزعنا أم وضعنا، فينبغي دائماً التعبير عن احترامنا لله بفعل ما أو حركة ما (إشارة الصليب، وضع اليدين أثناء الصلاة، تأرجح الجسم). هل هذا واجب ديني أم تطير؟ تنظر جميع الأديان إلى اليافوخ على أنه موضع النفس الإنسانية. تكون المباركة الطبيعية أياً كان المعتقد بوضع يدي أحدهما على رأس الآخر. ينبغي على الروح أن تبقى في داخله. والروح شيء لا مادي، ولا نحتاج إلى برهان لإثبات وجودها. إنها موجودة لأن الإنسان بحاجة لأن يؤمن بها، ولا يمكن أن يكون الموت نهاية لكل هذه الحياة، فينبغي أن نقدم لها تتمة منطقية أملاً في الاستمرار بعد الموت. وقد أُوكل بهذا الدور إلى الروح. دين هذا أم تطير؟

إن جسد الإنسان آلة بلغت درجة من الكمال بحيث يستحيل الاعتقاد بأنه ليس سوى نتيجة حادث عرضي من حوادث الطبيعة. ومن الصعب جداً على الخصوص النظر إليه كأنه زيت سيارة مستعمل. ثمة لا محالة روح مستودعة في مكان ما، ومن هنا تأتي أهمية التطير وعلى الأخص الأديان. كيف؟ ألم تكن تدري أن الأديان تطيراً مقدساً؟ إنها في كل الأحوال مفيدة جداً عندما لا تكون الأمور على ما يرام، وعندما لا تعود البوصلة تشير إلى جهة الشمال.

الأسنان

(مقاومة الإحباط)

يسبب الإحباط زيادة في نسبة التوتر فتزداد ردود الفعل العدائية ضد الذات أو ضد الغير. ولكن ما تجهله بالتأكيد هو أن الإحباط أبّ جميع نوبات القلق اللاعقلاني التي قد تشتكي منها عند اللزوم. يولد الإحباط عدداً كبيراً من المشاعر المرتبطة ببعضها البعض كالغيرة والحسد والطمع والحقد أو الحاجة إلى الانتقام. ابتعد عن الوضع أو الجو الذي يبعث الإحباط، وسوف تتذوق طعم طمأنينة لا مثيل لها على الأرض. إن القول سهل، ولكن غالباً ما يكون من الضروري جداً لبلوغ ذلك أن تعيد تقويم سلوكياتك، وهذا ليس أمراً مضموناً مسبقاً.

يحتل التدخين مكاناً كبيراً في لغة الحركات، فبعض الأفراد لا يشعرون حقاً بالارتياح إذا لم يكن هناك سيجارة تشغل أصابع أيديهم وهي تحترق ببطء. ولكن لماذا تدخن؟ من السهل الإجابة على هذا السؤال، فيكفي أن تلاحظ بصورة ذاتية اللحظة التي تحس فيها بالحاجة لتدخين سيجارة. ما الذي يبرر هذه الحاجة؟ إنه الإحباط.

سأوضح لك ذلك: لُوحظ أن الأفراد الذين يقاومون الإحباط بسهولة ليسوا شرهين للطعام بتاتاً، وليسوا مدمنين على التدخين أو على تناول الأدوية، إلى آخره... وقد أجريت تجربة مثيرة للاهتمام في الولايات المتحدة على أساس اختيار أساسي أُقترح على فئة من الأطفال تتراوح أعمارهم بين ٨ إلى ١٢ سنة. فقد خُيّروا بين إمكانية الحصول على قطعة حلوى على الفور أو قطعتين بعد ساعة من الانتظار. مما لا شك فيه أن الذين اختاروا الانتظار قد قاوموا الإحباط على نحو أفضل من أفراد المجموعة الأولى. وقد تمت متابعة المجموعتين عدة سنين، فلوحظ أن نسبة النجاح المدرسي بين أفراد المجموعة الثانية أعلى بكثير من نسبة النجاح بين أفراد المجموعة الأولى. ولوحظ أيضاً أن معظم أفراد المجموعة الثانية قد واظبوا على ممارسة الرياضة بعكس أفراد المجموعة الأولى، وكان معظمهم غير مدخن عند بلوغ سن الرشد.

وفي سن المراهقة كانت نسبة المدخنين بين أفراد المجموعة الأولى أعلى بكثير من نسبة المدخنين بين أفراد المجموعة الثانية. نستنتج من ذلك أن درجة عالية من مقاومة الإحباط تقف وراء بروفيل الفرد غير المدخن. فالامتناع عن التدخين يؤدي إلى نتيجة إيجابية، ولم لا؟

كيف نتعلم مقاومة الإحباط؟

بالكف عن قياس المسافة قبل اجتيازها كما ذكرت ذلك غير مرّة في مؤلفاتي السابقة. أعلم أن الفعل ليس في بساطة القول. كيف لا تقدر الزمن الضروري لإنجاز مهمة عندما يستعجلونك لإنهاء ما لم يُبدأ به بعد؟ وكيف لا تقيسين المسافة التي عليك أن تقطعيها بالسيارة بين النقطة (أ) والنقطة (ب) عندما يضطرك زوجك للعودة إلى البيت؟ نحن نعيش بالتوافق مع الزمن الذي يمضي، الزمن الذي خسرناه أو الزمن الذي ربحناه. إذا كان تدبيرنا للزمن مرادفاً للفعالية في المكتب أو العمل فهو لا يسهم في نوعية العمل المنجز. يرتبط كل شيء بالهدف المراد بلوغه: فعالية أم نوعية؟ اعلم أن الأولى متضمنة في قائمة الثانية ولكن الثانية غير متضمنة في الأولى. إن استهداف نوعية العمل هو إقصاء كل شعور بالإحباط.

وبقدر ما تعلّم طفلك هذه القاعدة، ينظف أسنانه بصورة منتظمة ودون استعجال. فهل صحة أسناناً مرتبطة بموقفنا من هذه المقدرة على مقاومة الإحباط؟ ولم لا؟ إن ما يتيح لنا الفصل في هذه المسألة هو بروتوكول من البحث يربط هذه المقدرة بحالة أسنان الناس الذين نستخدمهم كمثال. لماذا لا نستعين بإحدى ماركات معاجين الأسنان؟ هذا إشعار موجه للباحثين الذين يفتشون عن مشروع بحث.

نصيحة المعالج النفسي

أؤكد لك أنه كلما استغرقت زمناً أطول في تنظيف أسنانك كلما تعلمت مقاومة الإحباط. جرب ذلك وسوف ترى أنني محق تماماً. ومن يهمل أسنانه من ذكر أو أنثى إنما يفعل ذلك خوفاً من الألم الذي ينتظره عندما يتوجب عليه الذهاب إلى عيادة طبيب الأسنان، فيؤجل ذهابه متذرعاً بحادث طارئ مزعج. إن عتبة مقاومة الألم هي صورة عضوية عن عتبة مقاومة الإحباط.

يعتبر اليوم أن امتلاك أسنان ناصعة بيضاء جميلة ومصفوفة صفاً جميلاً امتيازاً لا غنى عنه على الصعيد المهني. فمسؤول التوظيف سيفضل فوراً للعمل مرشحاً ذا ابتسامة بيضاء على مرشح أكفأ منه بكثير ولكن أسنانه اصفرت من النيكوتين أو مزروعة كأنها طقم أسنان. وسوف يكون محق في ذلك دون أن يعلم إذ أنه يُلحق بالعمل شخصاً قادراً على الانتظار ساعة إضافية لكي ينال قطعتين حلوى بدلاً من قطعة واحدة. ما ذا يعني ذلك؟ يعني ذلك أن المرشح ذا الأسنان السليمة سيكون أهلاً لأن ينخرط في العمل بغض النظر عن نتيجة عمله. فهل سيكون أكثر جاذبية؟ أو هل ستكون أكثر جاذبية. بكل تأكيد! ومما لا شك فيه أن مسؤول التوظيف سيحس بعلو مكانته عند الشركة الزبونة بفضل اختياره لهذا المرشح. ولكن من يضع طقماً من الأسنان لسنوات عديدة من أجل تقويم ابتسامته، ومن يقضي

كذلك زمناً طويلاً في تنظيف أسنانه كل يوم بخيط أسنان سيكون قادراً على مقاومة الإحباط الذي لا يمكن تفاديه عند العمل في الشركة للمرة الأولى. كم مرة تنظف أسنانك في اليوم؟ كم مرة؟ إن هذا ليس كافياً!

الجبين

(موضع المكان - الزمان)

يبلغ حجم مخ الشمبانزي نحو ٤٠٠سم٣، ويبلغ حجم مخ الإنسان اليوم ١٣٥٠سم٣، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف حجم أقرب الكائنات إلينا. وهذا النمو المخي، وخصوصاً في المنطقة الجبهية هو الذي منحنا هذا الجبين الخاص للغاية بين الأوالي. ولا يلتفت غالبية الناس لجمال هذا الجبين ولا يرون منه سوى الحاجبين اللذين يزيناه أو التجاعيد التعبيرية التي تحفره.

تساوي التجعيدة شريحة حياتية

يتغضن الجبين إلى الداخل عند ينبجس القلق. وتلاحظ تجاعيد الجبين إلى الأعلى عندما ترتسم أمارات الدهشة في الوجه. ولكن التجاعيد هي أيضاً طبقات متسلسلة من الشرائح الحياتية المعاشة في حياة واحدة، ولا يتحدد عددها سلفاً، وقد تصل إلى أربع أو خمس شرائح متمايزة. تطبع الحياة الوجه بطابعها، وما كان لتجاعيد الجبين وجود لو لم تكن ذات دلالة كما هي الحال بالنسبة لخطوط اليد.

الرجل الزماني والمرأة المكانية

ترتكز فرضية عدد التجاعيد المساوية لعدد الشرائح الحياتية المعاشة في أثناء الحياة على رمزية الجبين الذي يعتبر كياناً لا يتجزأ. إن الجبين هو موضع الزمان، ومن يتكلم عن الزمان يتكلم عن المكان إذ أن هذين المفهومين لا ينفصلان، كما أنهما أساسيان لإدراكنا الحياة والموت.

يتموضع الزمان في الجهة اليمينية من الجبين (المرتبطة بالمخ الإدراكي)، ويتموضع المكان في الجهة اليسارية منه (المرتبطة بالمخ الوجداني). وانطلاقاً من هذه المعلومات يصبح كل شيء مسألة أي من المرفقين تفضل في الاستناد.

فإذا كنت تميل إلى الاستناد على اليد اليسرى والمرفق الأيسر لكي تريح رأسك أو جبينك

فأنت تعنى بالمكان أكثر مما تعنى بالزمان.

أما في الحالة العكسية أي الاستناد على اليد اليمنى والمرفق الأيمن

فأنت بالأحرى فرد (رجل أو امرأة) سيد على الزمان أو عبد له. من السهل أن نفهم هذا الطرح الأخير أكثر من الأول.

إن الفرد الزماني (الذي يعتبر الزمان شيئاً جوهرياً) يقيس كل ما يفعله، وكل مكان يذهب إليه، وكل مكان يأتي منه تبعاً للزمن الذي يمضي. فحياته ساعة جدارية، لا بل تقويم زمني يمسك حسابه بدقة. إنه رجل «الزمن الذي يمضي دائماً بمنتهى السرعة»، واللازمة الأثيرة لديه المرأة التي تقول «ليس لدي الوقت لأفعل كل شيء». إن الزمن متواجد دوماً في خطابه. يقيس الفرد الزماني دائماً المسافة قبل أن يقطعها، بخلاف الفرد المكاني (الذي يفضل الاستناد على المرفق الأيسر) فهو ذو خيال، سابح في أحلامه، مبدع يعتبر الزمن تجريداً لا فائدة منه. يوجد في نظره الصباح والمساء، الليل والنهار، الشتاء والربيع، سن الطفولة وسن الرشد. يحب الفرد المكاني أن يأخذ وقته في كل شيء، ويكره أن يستعجله أحد لأسباب تتعلق بمواقيت العمل، وهذا ما يجعله يصل دائماً مبكراً جداً أو متأخراً جداً إلى مواعيده. وهو لا يقيس الزمن بدقة كما يفعل الفرد الزماني الذي يحسب حساباً لكل دقيقة. يحتاج الفرد المكاني إلى مساحة خاصة به، إلى مجال حيوي كي يستطيع أن يعيش حياته. وكلما كان هذا المجال مريحاً كلما كان زمنه مطاطاً ومفهومه عن الزمن غامضاً وخالياً من الضغوط. إذا أردنا أن نرى الأمور رؤية عملية على صعيد الحب، فالثنائي المكاني - الزماني هو ثنائي متوازن، والثنائي الزماني هو ثنائي متوتر أو يسعى إلى النجاح المهني من دون وازع من ضمير. وأما الثنائي المكاني فهو بالأحرى بوهيمي وليس معنياً كثيراً بالنجاح المهني بكل قوة.

عندما ينظر الفرد بعيداً باتجاه الشمس

فهو يؤثر اليد اليمنى لكي يحمي عينيه إن كان يقدّر المسافة التي تفصله عن نقطة المحرق.

وإن كان يقدّر المتعة أو التعب أو الضجر الذي سيجنيه من نزهته حتى تلك النقطة فهو سيستخدم اليد اليسرى.

إذا كنت في صحبة مشاة زمانيين وأنت من المكانيين، فسرعان ما ستشعر بالرغبة في الافتراق عنهم أو إبعادهم عنك بالمعنى الحرفي للكلمة. لا يتطلع الفرد الزماني إلا إلى إحراز البطولة أو إلى التحدي فهو يعدّ الكيلومترات. أما الفرد المكاني فعابد للطبيعة، لا ينشد سوى إشباع عينيه من المنظر الطبيعي الذي يراه. على أندية رياضة المشي أو المسير أن تضع في الحسبان هذا الفرق فتخف بصورة كبيرة مشكلاتها التواصلية داخل المجموعة. ينبغي بالطبع الموازنة بين مواصفات الزماني والمكاني من أجل إحلال جوٍ مفيد للجميع. أخيراً وليس آخراً، نصادف دائماً مكانيين أكثر في حانة القرية وزمانيين أكثر راكبين فوق درجاتهم الهوائية على الطرق الصغيرة للمحافظة على لياقتهم البدنية.

إن صيد السمك رياضة مكانية، والسباحة على الدراجة رياضة زمانية. إن العطلات الرياضية أو الثقافية عطلات زمانية، والاسترخاء على شاطئ البحر نشاط مكاني. إن القراءة نشاط فكري مكاني، والتلفزيون استرخاء زماني. بإمكاني الاستمرار على هذا النحو في كتابة عشرات الصفحات، ولكنني أراهن أنك أدركت الاختلاف بين هذين المفهومين. فكل نشاط إنساني مرتبط بالساعة الرملية هو نشاط زماني، وكل نشاط إنساني غير مرتبط بها ارتباطاً بيّناً فهو نشاط مكاني. أنت تنتمي من الناحية الواقعية إلى أحد هذين المعسكرين تبعاً للمرفق الذي تؤثره لتسند رأسك أو جبينك أو خدك أو ذقنك. فاختر معسكرك!

الزمان المنطقي والمكان الخيالي

كما أقترح تحديد موضع الذهن المنطقي وموضع الخيال. اعلم أن المنطق يتموضع على مستوى الفص الجبهي الأيمن، والخيال على مستوى الفص الجبهي الأيسر. وتتموضع مشاشة العظم أو منتصف الجبين بين الحاجبين تماما فوق جذر الأنف، وهي الموضع الرمزي للتركيز. تنشأ هذه الاختصاصات من مراقبة الحركات في المواقف. اطمأن فأنا لم أمصها بإبهامي. يسند بعض الأفراد وسط الجبين بأجزاء مختلفة من اليد كالأصابع وراحة اليد والقبضة. وقد سنحت لي الفرصة لمراقبة مئات الطلاب وهم في وضع الامتحان الكتابي فكان التماس المادي مع وسط الجبهة هو القاعدة ما أن يبدوا منعزلين ذهنياً عن الوسط المحيط بهم.

يبسط محاورك يده (اليسرى أو اليمنى) على جبينه وهو مستند على مرفقه.

ترمز حركة بسط اليد على الجبهة إلى اليد التي تضرب من أجل استعادة الأفكار المُشوّشة.

الخدان

(الشجاعة والإيثار والحنان)

نقرأ على خدود الناس درجة الإيثار (الجود بالنفس)، أو حس العمل الطوعي المنزه عن المصلحة تنزيهاً خالصاً، أو النزعة الإنسانية، أو التسامح، أو حس السخرية. ويمكننا بالطبع أن نقرأ فيها أيضاً عكس هذه الخصائص النادرة كالقسوة والأنانية والحقد وبغض المجتمع. لا تثق بتاتاً بالرجل (أو المرأة) ذي الخدين الغائرين الذي يطمئنك بشفقته، إذ أنه (أو أنها) مجرد منها. إن إدارة الخد الآخر سلوك شجاع، ولكنه سلوك إيثاري على وجه الخصوص.

يمثل الخد الأيمن الشجاعة، ويمثل الخد الأيسر السخاء، ويرمز الاثنان إلى الحنان.

الخدان الغائران

هل هناك خدان أشد تأثيراً في النفس من خدين ممتلئين لطفل؟ من المؤكد أن الخدين عند المسنين يغوران أو تحفرهما التجاعيد، ولكن ليس هذا عند جميع المسنين. وهذا بلا شك نتيجة ميكانيكية سببها تساقط الأسنان، ولكن أيضاً نتيجة نفسية تشريحية لثقافة الحنين المكثفة إلى الماضي. وقد يقف وراء ذلك ضمور مقرون بمرض جلدي. يفقد الأفراد ذوو الوجوه العريضة (ذوو العضلات) خدودهم مع التقدم في السن. تشير الخدود الغائرة إلى غياب الكرم، لا بل إلى التمحور الشديد حول الذات. وتُقرأ أيضاً عبارة الشخصية على هذه الوجوه التي حفرتها التجاعيد، وهي وجوه لشخصيات مجردة من الأخلاق، وقد قضت عندها حياة السلطة على أشد المشاعر الإنسانية بدائيةً. يحتفظ الكرماء مع تقدم السن بالخدود الممتلئة أياً كان التطور الطارئ على مورفولوجيتهم.

خدا الحنان

تحب الأيدي والخدود اللقيا غير مرّةٍ في اليوم، وخصوصاً عندما تبخل الحياة بالعطاء، وتغيب اللمسات. عندما يستند محاورك بمرفقه أو بمرفقيه على مكتبه أو على طاولة المقهى التي تفصلك عنه، سجّل أين يضع راحتي يديه. فإذا كان يضعهما فوق خديه فأنت بإزاء مستجدٍ وجداني. إنه يحتاج إلى الحب كما تقول كلمات الأغنية التي تغنيها France Gall.

الحاجة إلى الحب في مجتمع يجهر بسعادته من على الشاشة الصغيرة في أكياس من ماركة بونيكس. الحاجة إلى الحب في مجلات مصورة لا تعيش إلا من فضح الأسرار والخيانات الزوجية. الحاجة إلى الحب في مجتمع يرتعب من تهديدات الإرهابيين بالاعتداء عليه، ويمقت نفسه لأنه لم يحسن أن يحب ذاته. يعانق نجوم الفن الريح لكي لا يدخل الجلد في تماس مع الآخر، من نوع «أحبك، أيتها القحبة!».

من الصعب أن نتصور إلى أي درجة يكن الفنانون الكره لبعضهم البعض، بصورة ودية أو غير ودية. تكاد تكون الصداقات دخيلة في هذا الوسط الذي يتربع فيه المال سيداً على جميع الخدم.

إن قبلة الصداقة الحقيقية الوحيدة أو قبلة الحنان هي تلك التي ترافقها اليد على خد من نقوم بتقبيله. وهذه القبلات نادرة للغاية إذ أنها تبرهن على صدق الروابط أو الانعطاف نحو الآخر. فهل هذا هو السبب الذي يجعل من الخد أيضاً الموضع الأثير للصفعة؟ إن الصفعة إشارة إلى جرح وجداني عميق عند من يسددها وليس عند من يتلقاها.

الوجنتان

عندما نتكلم عن الوجنتين اللتين يصبح الخدان من دونهما امتداداً لحمياً مرتخياً، أقصد مجموع العظام الداعمة للخدين. تكون الوجنتان بارزتين عند البعض وغير ظاهرتين تقريباً عند البعض الآخر. وإن إبراز الوجنتين عند الجنس الآخر عن طريق المساحيق (المكياج) مهم جداً. لا يكفي أن تكون وجنتا المرأة عاليتين لكي تحس بحاجتها إلى «مكيجتهما». غالباً ما تكشف الحاجة إلى إبراز جزء من الوجه شيئاً من الطموح يصل إلى حد الوصولية عند المرأة التنفيذية في الشركة التي تعمل بها. لا تلق باللائمة عليها! فكل واحد يختار أسلحته ويلمّعها وفقاً لما يتمتع به من مزايا سواء أكانت مزايا مهنية أم مزايا تجميلية. على أنه يوصى كثيراً الزميلات ذوات «الوجنات المحتقنة» أن ينظرن بانتباه أين يضعن أرجلهن. إنها (الوجنات المحتقنة) متوحشة ما فيه الكفاية بطبيعتها. ينبغي بالطبع ألا نستنتج أن الاحمرار الطبيعي للمرأة الخجولة هو علامة على التطلع إلى النجاح على الصعيد المهني. من جهة أخرى، من المهم أن ندرك أن التوليد الاصطناعي لهذه البقع الصغيرة المحتقنة التي تظهر على خدود المراهقات أو على وجناتهن يمكن أن يكتسب معنى آخر عندما يتم محاكاتها في إطار مهني. يخبرنا المؤرخون أن الفتيات المخصصات للحرملك في سوق النخاسة كنّ يُبعن بسعر أعلى عندما تحمر خدودهن، فقد كان الرجال يعتبرون احمرار الوجه امتيازاً جنسياً.

الحق يقال إن هناك صلة غير مباشرة بين المقدرة على الاحمرار بسهولة وبين مفرزات المهبل. يوجد نوعان من مفرزات المهبل: المائية واللزجة. تكون مفرزات مهبل الفتيات الخجولات صاحبات الاحمرار السريع لزجة، وهي أشد إثارة بكثير من المفرزات المائية لمهبل الفتيات اللواتي لا يظهر عليهن الاحمرار بتاتاً أو يكاد. من المؤكد أن تجربة على أرض الواقع حصراً تتيح لنا تأكيد مثل هذا التفصيل الحميمي جداً.

إصبع الله

الغمازتان أو إصبع الله: هما وريثتا سلالة من محبي الضحك والمقالب الهزلية؟ ظاهرة نادرة لا يعرف أصلها التشريحي أو منفعتها المحتملة. ويمكننا الأخذ بعدة فرضيات:

- جميع المتحدرين من جذع مشترك، من قبيلة أو من أحد الجدود الذي تشير هذه العلامة الفارقة. وهناك غيرها من العلامات كالوحمتان على جانبي الفم، والبقع التي تنشأ عند الولادة، الأصيلة من حيث موضعها، وغمازة الذقن، وأسنان الحظ، إلى آخره...
- تلاحظ الغمازات خصوصاً عندما يكون الوجه باسماً أو عندما يكون الشخص على وشك الانفجار من الضحك. من هنا أتت فكرة السلالة من محبي الضحك أو المقالب. لقد احتفظ الخدان من كثرة الضحك بهذا الأثر المستديم لروح الفكاهة.

لا تنسَ أن إدارة الخد لمن يريد بك السوء هو علامة على الشجاعة وليس علامة على الرأفة أو على البرّ المسيحي، إذ أننا ندير دائماً الخد الأيمن في مثل هذه الحالة.

اللسان

(غريزة حفظ النوع)

اللسان هو الإصبع الحادي عشر المختبئ
داخل الفم

اللسان عضو مدهش متعدد الوظائف. تغطي الحليمات الذوقية سطحه الخشن، ويتراوح عددها من ٩٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ حليمة. وتستطيع هذه الحليمات التمييز بين أربعة أذواق مختلفة: المالح والحلو في رأس اللسان، الحامض على جانب اللسان، المر في مؤخرة اللسان. ولكن اللسان هو أيضاً أداة للتواصل البصري (مد لسانك!) مع اضطلاعه بدور أساسي في عملية

النطق بالأصوات اللغوية. إن اللسان هو موضع غريزة حفظ النوع كما سوف ترى لاحقاً. فهو يصون الفرد بتقديمه له إمكانية التواصل مع أبناء جنسه، ويستخدم كأداة مهمة في التغذية. وهما ظيفتان أساسيتان لحفظ النوع: لسان من أجل الكلام وآخر من أجل الطعام.

تخيل للحظة أن الإنسان لا يمتلك لساناً يتيح له التكلم على الرغم من معرفتنا أن اللسان ليس وحده المتدخل في عملية النطق. عالم من الصمت، عالم من الإشارات الجسدية ذات معانٍ مبهمة، لأنه إذا اعتبرنا اللسان هو أصل التواصل الشفهي، أمكننا اعتباره أيضاً أحد الأدوات التي أتاحت للإنسان العاقل البقاء على قيد الحياة. لم يكن ممكناً لأي مجتمع أن يقوم لولا ملكة التواصل الشفهي. إن غنى اللغة هو عامل حفظ الجنس البشري، وقد أتاحت للشعر والديالكتيك والكتابة التعبير عن ألف إحساس وإحساس لدى الكائن البشري. فاللغة مرآة نستطيع أن نتأمل فيها تفوق ذكائنا البشري على أبناء عمومتنا من الأوالي. ولكن من يتكلم عن التطور يتكلم عن حفظ النوع لأن هذا اللسان الخبيث الذي تحبسه الشفتان في نهاية الفم هو أيضاً الموضع الرمزي والوحيد لغريزة حفظ نوعنا المتفرعة عن غريزة البقاء على قيد الحياة.

البقاء على قيد الحياة بأي ثمن كان

أنعمت الطبيعة علينا جميعاً بغريزة بقاء على قيد الحياة ولكن هذه الغريزة ضعيفة عند البعض قياساً بالآخرين. يعني البقاء على قيد الحياة العيش فيما وراء غباوة جنس بشري يخرب محيطه الحيوي كما يخرب طفل وَسِخ اللعبة التي أهديت له. تحتل الانبعاثات الغازية التي تسبب ارتفاعاً في درجة الحرارة ومبيدات الطفيليات في الزراعة وتلوث البحار بشكل منتظم الصفحات الأولى من الصحف التي تصدر كل يوم، ولكن جمهور القراء يولي اهتمامه لهزة أرضية تحدث على قاب قوسين من منزله وتبلغ قوتها ٥.١ على مقياس ريختر، أو لأحواض النباتات التي اعتراها الذبول، أو لانقطاع التيار الكهربائي لمدة ساعة واحدة. هل يُعقل ذلك؟ لقد كادت الكارثة أن تقع فوق رؤوسنا! وبينما يفرح الناس ببقائهم على قيد الحياة يستمر التلوث في الخفاء. يُنشر الخبران في صفحة واحدة إلا أن الخبر الأفدح يبتذل ويبرر منطقياً بينما تسلط الأضواء على الخبر الأقل فداحة ويُضفى عليه طابع الانفعال. إن هذا التعامل مع الخبر بمستويين ينقل تأثيراً سيئاً بالنسبة لغريزة البقاء على قيد الحياة عند الفرد. إنه يخفف من أهمية الخبر الأكثر مأساوية على المدى الطويل، حالة مستقبلية سيواجهها الإنسان في يوم قريب، ويضع في رأس الصفحة حدثاً فورياً لا تأثير له على صحته أو على مستقبله. وفي الوقت نفسه يشعر مشاهدو محطة فرانس التلفزيونية الثانية بالأسى لتدمير مدينة بومبيي منذ ألفي

سنة. وسكان هذه المدينة لم يحسوا بقدوم الكارثة لأن غريزة بقائهم خُدرت بالأخبار المضللة التي نقلتها إليهم السلطات المحلية آنذاك. لم يكن الخطر محدق بومبيي. وليس الخطر محدق بكوكب الأرض. للانبعاثات الغازية تأثير على ارتفاع درجة حرارة الأرض بصورة تدريجية، وقد رأينا ذلك أثناء القيظ الاستثنائي لصيف ٢٠٠٣، ولكن الظاهرة المناخية التي سُجلت لم تقتل في فرنسا سوى خمسة عشر ألفاً من المسنين. يا له من عدد تافه! وهذا ما يفسر أن غريزة البقاء على قيد الحياة في طريقها إلى الانقراض، وهي التي أتاحت للكائن البشري أن يصنع حضارة ذات تكنولوجية متطورة جداً. هل ينبغي أن نشعر بالقلق حيال ذلك؟ حري بنا أن نقلق من كثرة الديون التي ترزح تحتها ما يقارب سبع مائة وخمسون ألف أسرة فرنسية أو الديون التي يرزح تحتها سكان بلجيكا والتي تبلغ ٢٠٩٦ يورو عن كل شخص. هذه إشارة أخرى إلى انحراف مزاج مرتبط بغريزة بقاء هشة.

تعليق الأقراط في اللسان

كان الشامانيون وكبار الكهنة في المعابد القديمة لحضارتي الأزتك والمايا يعلقون الأقراط في ألسنتهم ليتواصلوا مع آلهتم. ترمز هذه العملية الخاصة جداً والمؤلمة للغاية إلى إبعاد سوء الحظ أو الفشل الحيوي أو إعادة تقويم الفرد لماضيه. وهي أيضاً طريقة كفيرها من الطرق لتبرير مد اللسان في كل لحظة. ولهذا النوع من الثقب مغزى آخر غير سلوك المشاكسة عند المراهق الذي نسي أن يكبر. فخضوع الفرد لعملية ثقب اللسان هي طريقة تعذيب مُسارَّية تتيح له إيقاظ غريزة بقائه التي أصبحت ضعيفة بفعل رسالات تربية انسحابية. والغريب في الأمر أن بعض الشباب والفتيات الذين أعرفهم حق المعرفة والذين خضعوا لطريقة التعذيب المُسارَّية هذه كانوا يتصفون بميول انتحارية. وما أن علّقوا الأقراط بألسنتهم حتى كفّوا عن الحديث عن الانتحار. والشيء الوحيد المزعج لهذا التشويه الإرادي هو أن الالتئام يكون طويلاً والإصابات بجراثيم الأمراض شائعة، وخصوصاً أن اللسان حساس جداً للألم. ولكن ربما تستحق النتيجة العناء المبذول من أجلها إذا ثبت أن هذه الطريقة تخفف من عدد المنتحرين في صفوف الشبيبة. لعل هذا الاقتراح يستحق دراسة جدية من السلطات العامة.

ثلاث حركات شهيرة

مرّر محاورك بصورة منتظمة لسانه على الفواطع العليا.

تكشف هذه الإيماءة أن محاورك يبدي اهتماماً واضحاً أكثر مما تكشف حاجته إلى تنظيف أسنانه.

تتحسس حبيبة قلبك شفتيها بطرف لسانها.

إن هذه الإيماءة في رأيي إباحية بيد أنها شائعة ما فيه الكفاية وتعني في الواقع أن فتاتك الجديدة تستعد لتأكلك نياً، بصورة رمزية اطمأن! ولكن يتفق أحياناً أن يؤدي أحد الخطباء الشعبيين هذه الحركة أمام جمهوره. ينشّف الكذب شفتي الكذاب كما لو أن الغدد اللعابية ترفض المشاركة في خيانة الحقيقة. من الغريب أننا نلاحظ أن المرء يسيل رضابه أو لعابه بشكل عادي عندما يقول الحقيقة، وإن هذا الرضاب ينضب عندما يخفي الحقيقة عن نفسه أو عن الآخرين. يسبب الكذب في الواقع بشكل آلي شعوراً بعدم الراحة أو شعوراً بالذنب سرعان ما يقوم ضمير الكذّاب بقمعه، وهذا الشعور الأخير هو سبب اضطراب إفراز اللعاب أو الرضاب. ولكن صحيح أن التهيب قد يؤدي أيضاً إلى نفس النتائج. تَهَيّب هذا إذاً أم كَذِب؟

أخيراً إذا مد أحدهم لك لسانه بصورة مفاجئة فهذا يعني
أن محاورك قد أعيته الحيلة

وقد يتعلق الأمر بحرية تسمح بقياس درجة التواطؤ بين شخصين.

الشفتان

(اللذة والكذب والغضب والجشع)

تُطلق الشفتان إشارة جنسية قوية. وبالطبع لا تطلق جميع الحركات المقرونة بهما الشهوانية الخاصة بهذه الإشارة. بيد أن اللذة التي نحس بها عندما نلمسهما بطرف أصابعنا بشكل غير إرادي أو عندما نمرر لساننا بين الشفتين لترطيبهما واضحة وضوح الشمس. الشفتان هما رواق الفم الذي نستخدمه لنبتلع «الطعام الذي نتلذذ به». وهما أيضاً أداة التماس الأولى المفضلة في العرض الغرامي المكتمل. ولم يكن اختيار النساء لأحمر الشفاه اختياراً اعتباطياً لكي يبلغن به عن حضورهن. إن الفم ثمرة الرغبة والشفتين رسولتا اللذة. وغالباً ما يكون للتعابير الإيمائية الخاصة بهما بصورة مباشرة تضمين وجداني ذاتي، لا بل جنسي بصورة سافرة.

ترمز الشفة العليا إلى الكذب أو إلى الغضب بحسب الظروف. فهل جورج دبليو بوش فرد سريع الغضب أم كذاب حتى النخاع؟ يمكننا أن نلاحظ في بعض مداخلاته على الشاشة

الصغيرة أن شفته العليا تبقى جامدة نسبياً بينما *شفته السفلى (موضع الطمع)* تكون غائرة عادةً. لا يلغي أحدهما الآخر فقد يكون بوش كذاباً وسريع الغضب كما هي الحال بالنسبة لعدد كبير من الناس. من جهة أخرى، إنه ليس في جشاعة مساعديه الأكثر قرباً منه. ليس للإنسان في الحياة عيوب فقط. ترمز الشفتان مع بعضهما إلى اللذة.

تعليق الحِلى في الشفتين

إن الفم وبالأخص الشفتين جزء من الجسد يتمتع بطاقة قوية منشطة للجنس. وهذا بلا شك السبب في أن أفراد الطبقات العليا عند الأزتك والمايا يستطيعون دون سواهم تزيين شفاههم بأقراط من الذهب الخالص. وكان أفراد بعض القبائل في أمريكا الوسطى والجنوبية يثقبون الشفة السفلى ويوسّعون الثقب ليعلقوا فيه أطباقاً من الخشب. ومازال ثقب الشفتين دارجاً إلى اليوم، وغالباً ما يكون فوق الشفة السفلى أو تحتها، وهو علامة على الجشع أو الطمع الذي يُجاهر به بكل براءة. لقد سنحت لي الفرصة رؤية عددٍ كبير من الأشخاص الذين يحلون ضيوفاً في الاستوديو، فقد كانوا يعلقون الأقراط تحت شفاههم السفلية. تجيز لي خبرتي كأخصائي في السلوك التأكيد بأن هذه الطريقة الخاصة في تعليق الحِلى تنطبق على أفراد ذوي عزيمة ماضية في بحثهم عن المنفعة بالمعنى الشامل للكلمة. ويشير تعليق الحِلى تحت الشفة السفلى أيضاً إلى ثبات، أو جشع لا يعبأ بالأخلاق.

تقوم كثير من النساء الشابات الجميلات بتعليق حِلية تحت الشفة السفلى بكل براءة. ينطبق هذا الوصف عليهن بدرجة كبيرة أو ضئيلة. وتضع البعض من هؤلاء الجشعات الجميلات خاتماً في الإبهام الأيمن تأكيداً على أوصافهن. ترى بعض المصادر أن تعليق الأقراط في الشفة السفلى مضاد للقلق، لا بل مضاد للتوتر. عندما نحس بخوف شديد، تكون أولى ردود الفعل العصبية العضلية هي ارتعاش غير إرادي للفك السفلي. وتحدث ردة الفعل الجسدية نفسها عند غالبية الناس في نوبات الغضب أو الحزن.

ثنيات المرارة

من المثير أن نلاحظ أن نوع الحياة التي يعيشها الشخص تظهر مع تقدم العمر في رسمة شفتيه. تتهدل الشفتان على شكل هلال عند الأشخاص الذين تعلموا كيف يحافظون على مرارتهم. وتظهر الشفتان كجرة قلم الرصاص عند الأفراد الذين خبأ لهم القدر حياة مديدة كالدون الهادئ. أما الأفراد الذين كانت حياتهم مغامرة فتميل زوايا شفاههم (أشداقهم) ميلاً خفيفاً إلى الأعلى لتضفي على الفم شكلاً تخطيطياً لصحن الحساء. تبقى الشفتان النهمتان،

وهما شفتان متموجتان كأنهما أمواج مزبدة: تدل هذه الرسمة الخاصة للشفتين على الجشع أو البخل. إن المرء لا يولد هكذا وإنما يصبح كذلك.

كان صديقي ليون من بين جميع أصدقاء طفولتي أنموذجاً للجشع والبخل. أتذكر تماماً أن رسمة شفتيه قد تطورت مع مرور الأيام ومع تراكم الملايين في حسابه المصرفي. وكان عندما يتباهى بثروته يزبد فمه من السرور بالمعنى الحرفي للكلمة. قضى ليون نحبه في سن الثامنة والخمسين ولم يستطع أن ينعم قط بثروته. وأكبر الظن أنه قد نظم وفاته بلا وعي منه لكي لا يجد نفسه مضطراً إلى إنفاق هذا الكنز الثمين في سني شيخوخته. لقد مات غنياً في حقيقة الأمر.

هناك نساء شابات في الثلاثين من العمر مطبوعات بطابع المرارة الشائن، بينما رسمة الشفتين عند البعض الآخر ممن بلغن الخمسين من العمر ويتمتعن بالنشاط تجعلنا نستشف استقامة زوايا شفاههن. إن الشفاه المتهدلة على شكل هلال دليل على الاحتقار أو القرف، ونستشف أحياناً شرّ أصحابها في سلوكهم. لقد عاشوا حياة حرمان دفعتهم إلى أن يطمعوا في كل ما لم يستطيعوا استحواذه.

عندما تنمحي الشفتان...

تحتل صورة جورج دبليو. بوش غلاف مجلة Nouvel Observateur الصادرة بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٣. ويبدو في الصورة وهو يضع يده اليمنى على قلبه ويزمّ شفتيه على شكل صحن حساء مقلوب. في هذه الوضعية تصنع، لا بل هي كاريكاتورية. نراه في الصورة وهو يصغي إلى النشيد الوطني لبلاده. تشي رسمة شفتيه بمرارة غير متوقعة، وهو الرجل الأقوى على وجه البسيطة.

لا يستطيع أن يقلّد مثل هذا النوع من الإيماءات سوى ممثلين كوميديين مثل Sol أو ممثلين إيمائيين مثل Marceau الذي يمتاز بوجه جد متحرك. تنطبع هذه المرارة على الوجه في علاقتها مع الحياة المعاشة. وليس بالإمكان تفسير سبب هذه المرارة المطبوعة على وجه رئيس الولايات الأمريكية إلا إذا كنا على معرفة بتاريخه الشخصي. من جهة أخرى، ثمة نقاش آخر يُفتح بالنسبة للشفتين المزمومتين. فهما بالفعل عُرّة إيمائية، وليست أقل العرات تعبيراً. فاختفاء اصطباغ الشفتين شبه التام تأكيد على فقدان هذه الشخصية للحساسية (عدم الإحساس بمشاعر الآخرين). يعبر زم الشفتين كذلك على القرف، ونلاحظ هذه الإيماءة عند الأفراد المتزمتين أو المتمسكين بأهداب الفضيلة. نزم الشفتين بهذا الشكل عندما لا نستطيع سد

الأنف جهاراً. والقرف مرادف للموقف العام للرفض. ويثير بغض المجتمع، وكذلك كره النساء هذا النوع من الإيماءات. يبدأ الانفتاح الاجتماعي على حافة الشفتين مع الكلمات التي تسمح لنا بالتواصل، ويُسجّل الانغلاق من الناحية المنطقية في الموضع ذاته. تنتهي جميع أشكال الرفض بأن تنطبع في اللغة الإيمائية للوجه عندما ينتقل الفرد من الرفض بلا قيد أو شرط إلى عنف المشاعر التي يحس بها. فيتحول هذا العنف إلى قسوة إجبارية، ومبررَة فيما يخص بوش.

نصيحة المعالج النفسي

تشابه الشفتان على شكل مؤخرة الدجاجة الشفتين المزمومتين أو الممحيتين. إنهم يزمّون شفاههم لكي لا يتوجب عليهم سد أنوفهم.

إن زم الشفتين إشارة إلى احتقارهم للحشرة التي تقف إزائهم: إما أنا وإما أنت!

ثبّت من أجل زعزعته نظرك على هذه الشفاه المحتقرة وأنت تصغي إليه أو تكلمه فينتهي خصمك بأن يشعر بعدم الراحة حقاً. وتستطيع الإفادة من ذلك لتكون لك الغلبة.

الفكان

(الثبات)

من يتكلم عن الفكين يتكلم عن الغضب بكل أوجهه السلبية كالرفض المنظم والراديكاليه والتطرف والتمرد. ولكن نستطيع أيضاً اعتبار الفكين أحد المواضع الرمزية للثبات وقوة التحمل.

هو يصرّ على أسنانه كل ليلة. هذا مغيظ!

ولكن من هو المغتاظ في حقيقة الأمر؟ إنه يمضغ غضبه طوال الوقت.

توحي لنا صورة مُقربَة لوجه جان ماري لوبان بأنه ينبح لكي يشل رجاله، وهذا ليس جديداً بحد ذاته. ففتح الفم بهذه الطريقة الخاصة جداً والتي تسمى بالفك العريض هي إيماءة ثابتة للشخصية التي صنعها لنفسه.

ولكن ينبغي أن نقر أيضاً بالنزعة القتالية وبقوة التحمل عند هذا الحيوان السياسي على الرغم من عدم إيماننا بمذهبه.

يندر في بعض المناطق من المعمورة رؤية الفكين البارزين كدلالة على قوتهما وقوة الذقن عند الأفراد الذكور. ويمكن أن نلاحظ في المقابل أن لحية الأفراد في هذه المناطق (في الشرق الأقصى على وجه الخصوص) لا تنمو بصورة واضحة. فهل هناك صلة بين فك الإنسان الغربي وبين نمو شعر اللحية؟

لا يحدد شكل الفكين بالطبع مقدرة الفرد على التحمل. من جهة أخرى، إن الوقود الأساسي الذي يبتعث هذه الخصلة هو الغضب الذي يصار إلى تصعيده. فالتحمل أو النزعة القتالية يحتاجان إلى وقود الغضب حتى يستعيدان طاقتهما. هل يمكن أن ندوم من دون أن نصب جام غضبنا على القدر الذي يعاندنا أو على الزمن الذي يأخذ دائماً كل وقته؟

لا يمكننا أن نحدد درجة ثبات الفرد تبعاً لنوع فكيه. أما المضغ الخفي فهو إشارة إلى الغضب الذي من شأنه أن يبتعث هذه الخصلة.

الذقن

(التحدي)

يقال عنه ذا إرادة عندما يكون فكاه بارزين، ولكن شكله على العكس من ذلك على الصعيد المورفولوجي البحت. التقيت بعدد من الأفراد من ذوي الذقون الطويلة والممدودة إلى الأمام، فلم يكونوا أبطالاً في الثبات. فمن أين أتت أسطورة أنصار المذهب الإرادي ذوي الفك العريض؟ لعلها ليست خرافية بالقدر الذي نعتقد. إن بروفيل لاعبي القوى (في تصنيف النماذج البشرية من تأليف Kretschmer[1]) هم أفراد ذوو عظام ثقيلة بارزة وذوو ذقون عريضة ووجوه مستطيلة. وهم بشكل عام (رجالاً كانوا أم نساءً) من ذوي الأجسام القوية والنشيطة والرياضية، والتي تتمتع بالحيوية على وجه الخصوص. وهم أشد قدرة على التحمل من النموذجين الآخرين اللذين يصفهما Kretschmer les pycniques (أفراد أكثر ربعة) أو les leptosomes (أفراد رقيقو القامة زيادة). إن هذه النماذج هي بالطبع تجريبية، وتمثل محاولة للتصنيف المورفولوجي النفسي للأفراد دون أيّ قاعدة إحصائية حقيقية.

١- طبيب نفس ألماني (١٨٨٨-١٩٦٤).

سأصطاد كما جرت العادة المؤشرات التماثلية وسأحاول الإحاطة بالمعاني التشريحية النفسية للذقن. إن العضلة الرافعة للذقن تمدها (الذقن) إلى الأمام فتطبع على الوجه تعبير التحدي بمساعدة عضلة الخد التي تضغط الخدين فوق الأسنان. عندما يتحدى الأطفال بعضهم البعض بالنظر في باحة المدرسة يؤدون دائماً حركة تعرض ذقونهم لضربات الخصم الافتراضية. وتحت تأثير الخوف أو الألم الشديد تسحب عضلة العنق السطحية الفم نحو أسفل الذقن أو إلى الجهة الجانبية منه. وتُقرأ هذه التكشيرة على أنها علامة غليظة على الجهل.

ممنوع تحت...

وفي سياق آخر، يعضّ الأطفال ذقن أمهاتهم فرحين. تذكرنا ردة الفعل هذه بالطفل وهو يرضع ثدي أمه. يصور ذقن الأم البيضوية أو المستديرة مسبقاً ثدياً صغيراً يرغب الطفل استملاكه. ويعتبر هذا السلوك في إطارٍ آخر سلوكاً إيروسياً تماماً، وأنصحك بشدة أن تجربه إذا كان لشريكتك ذقن جميلة مرسومة بدقة. فسوف تجعلها تكتشف موضعاً تشريحياً تجهل قوته الإيروسية. تستطيع وأنت تلتهم ذقنها الصعود حتى الشفة السفلى وإدخال هذه الأخيرة في عملية افتراسك الغرامية.

علامة على حسن الطالع

تعتبر غمازة الذقن تفصيلاً مورفولوجياً مثيراً للفضول مثل غمازتي الخدين. تصيب الذقون ذات الغمازات دائماً بعض النجاح على الرغم من ندرتها في مناطقنا. تقول الأسطورة إن الطفل الذي يولد بهذا التفصيل المورفولوجي هو طفل سعيد الطالع. ولطالما اعتبرت غمازات الذقون امتيازاً بسبب ندرتها. إنها بحسب بعض الأساطير علامة على التمييز الإلهي. الندرة = الحظ إذ أن لها دائماً قيمة مضافة في جميع الظروف. والطريق المختصر سهل بعض الشيء! وما زالت غمازات الذقون أندر من غمازات الخدود، فمن أنعمت الطبيعة عليه بها من الرجال أو النساء كان محظوظاً. ولكن قد تُفسر وراثة هذه الثنية الجلدية في الذقن بصورة مختلفة. إليكم فرضيتي، وهي ترتكز على البرهان التماثلي، أي على علاقة التشابهات التي يمكن أن يفضي تقاربها إلى جزء من الحقيقة. ويشكل هذا النوع من البرهان إحدى أدوات العمل الأساسية في البحث التشريحي النفسي، وهو يأتي مباشرة بعد الملاحظة من دون قيد أو شرط. في الواقع، من الممكن أن نكون قد ورثنا هذه الثنية الجلدية للذقن عن سلالة من الجدود البدينين أو المتمتعين بصحة جيدة. يوحي لنا الأجداد البدينون بالرفاهية وبرغد عيش أكيد. فالعائلات البرجوازية التي أصابت نصيباً وافراً من الغذاء، وهي لا محالة متمتعة بصحة جيدة، قد خلّفت وراءها أحفاداً

تتمتع بالبنية نفسها. ثم انقرضت البدانة على نحو غير توقع. ركب جيل موجة المغامرة أو اضطر أن يلوذ بالفرار، فحلّت محل البدانة عضلات وطاقة يأس هي مصدر السرّاء. ومن هنا كانت فكرة الحظ المقرونة بغمازة الذقن، إذ أن الحظ ليس سوى مظهر من مظاهر بعض صنوف الظرافة البالغة في الدقة التي تصاحب الموهبة الحقيقية: الإلهام، الحدس، الفطنة، مواءمة السلوك مع الظروف، الإبداع، إلى آخره. يجب أن أعترف أنني لم ألاحظ قط غمازات ذقنية عند الأشخاص الذين يعيشون فشلاً مستديماً. إن الملاحظة التماثلية[1] هي طبيعة ثانية في اختصاصي، وهذا ما يجعل تفكيري قليلاً نسبياً. فالمرء لا يستطيع مراقبة محيطه الاجتماعي الوجداني، أو الصور المتلفزة، أو الناس الذين يخطرون في الشوارع، والتفكير في الوقت ذاته. فالملاحظة هي عملية استقبال للمؤثرات الخارجية تنفي كل إمكانية استبطانية. ويتماشى هذا التفسير لغمازة الذقن مع الموضع الرمزي المخصص لهذا الجزء التشريحي من الوجه: التحدي. فلكي نتحدى القدر ينبغي أن نتحلى بالشجاعة، ولكي نستفز ينبغي أن نتحلى بالموهبة، ولكي نجرؤ ينبغي أن نتحلى بالحظ. ولعله ينبغي لكي نكون محظوظين أن نكون قد وُهبنا هذا الحظ. يسوءني أن أخيب أملك إذا كنت من الأنصار المتحمسين للمصادفات واللقاءات التي تخضع للمصادفة.

لغة الذقن

يرفع محاورك رأسه ويداعب ذقنه أو يحكه وكأن الإلهام قد نزل عليه.

يشير مجرد رفع الرأس إلى تغيير التوجه في المناخ العقلي. لقد زعزعت قناعات محاورك. إذا لاحظت قيامه بهذه الحركة في أثناء حديثك فدع له مجالاً للكلام. فإذا طرح عليك بعض الأسئلة فقد فزت. وإذا تابعت حديثك متجاهلاً الإشارة التي تحملها هذه الحركة فقد خبت.

«لم يكفّ عن حك ذقنه طوال الوقت التي استغرقه عرضي لمشروعي. ثم صرفني من غرفة مكتبه متذرعاً بموعد على التلفون مع أحد زبائنه. لم أفهم ما يمكن أن يكون قد خطر في ذهنه. لاح في البداية أن مشروعي قد استوقفه»، يتذمر هذا الموظف الإداري الذي لم يرخ له العنان من أجل إنجاح مشروعه.

يميل محاورك إلى الإشارة إلى شيء ما أو شخص ما بطرف ذقنه.

هذه الحركة هي مزيج من الاحتقار و/أو الحيلة من فرد لا يثق إلا بمن يستخدمهم مطية لتحقيق مآربه المهنية. فإذا لاحظت أنه يرفع ذقنه بصورة شبه دائمة فهذا لأن الجدول التمثيلي الذي

١- الملاحظة التماثلية هي طريقة ملاحظة تستند الى المقارنة بين أداء الحركة وبين الإطار الذي ظهرت فيه.

يستخدمه كعقل حسابي يضيف ويقتطع ويضاعف من المنافع التي سيجنيها من المغفل الماثل أمامه. احزر من هو المغفل؟ يبدو لسان حاله يقول وهو يهز رأسه وذقنه ممدودة إلى الأمام: «أنظر من القادم!»

لم يسبق لك حتى الآن ملاحظة هذه الإيماءة، ومع ذلك فهو يؤديها أمام ناظريك بصورة منتظمة. إنها في نظره سلوك في منتهى اللطف، مقرون دائماً بابتسامة. من الصعب الظن بأن هذه الشخصية التي تلتقي بها كل يوم تتبئك باحتقارها بصورة إرادية أو غير إرادية. قد تكون هذه الشخصية رب عملك، أو زميلك الذي تعمل معه في غرفة واحدة، أو أحد الزبائن الذين غالباً ما تراهم في أروقة المعارض التجارية. إنه يهز رأسه في كل مرة لكي يخبرك بأنه قد رآك، ولا تصدر عنه ابتسامة أو غمزة تواطؤ، لكان معنى ذلك أنه يتفهمك، وإنما ترى دائماً هذه الذقن المرفوعة وكأنها تنتظر منك لكمة قوية.

يرفع محاورك ذقنه كلما توجه إليك بالكلام.

إنه لا يقدرك البتّة، أو إنه يتحداك أن تناقض كلامه. يجعل بعض المتحدثين من هذه الإيماءة عُرّة معاوِدة. يخيل لنا أنهم سينبحون عندما يشرعون في الكلام. إن هيئة محاورك هي هيئة عدائية سافرة، فهو يبحث عن المواجهة. لا تجاريه في لعبته وانطلق بعيداً عنه. فالإحباط هو الوسيلة الوحيدة التي تجعلك تفرض احترامك على هذا النمط من الأفراد الذي يعتبر أن أيّ علاقة معه سوف تفضي إلى صراع من نوع صراع الديكة.

الشارب

(حسب الارتجال)

الشارب هو قبل كل شيء زينة خادعة مثل المساحيق التي تستعملها شريكات حياتنا بدءاً بالشارب الذي يأخذ شكل مقود الدراجة إلى حزمة الشعر الصغيرة التي يبدو أنها تستخدم كمسند مريح للمنخرين. إن الشارب هو شعار المنشّط القريب منا، المتحمس، المحب للتواصل والمؤانسة، الأليف، المنفتح على الآخرين، الذي يقدّر الدعابة. يحب الحوار ولا يحرم نفسه منه. لماذا لا أحد من سياسيينا المرموقين (باستثناء Noêl Mamère) يُربي شارب الدركي أيام زمان؟ لأن الشارب مازال بلا شك يذكرنا بالجمهورية الثالثة وبممثليها المنتخبين من الشعب والقريبين من الناس. يبقى السؤال قائماً! قد تستحق المعاني التي تحملها أصناف

الشوارب المختلفة بحد ذاتها دراسة مستفيضة. من البديهي أن بعض الرجال يُطلقون شواربهم لكي تَقصُر أنوفهم الطويلة كأنف Cyrano التي تجرح أناهم، على أن هذه القاعدة ليست عامة. غالباً ما يخفف الشارب من حدة زوايا وجه صاحبه، وهذه الغاية تتوافق مع الحاجة للانفتاح على الآخرين. إن الشارب باروكة الممثل الطبيعية للغاية، فهو يكسو الوجه العاري ويمحي الزوايا الحادة، ويستخدم كياقة لأنف مدبب بصورة مفرطة.

وصاحب الشارب المتعلق بحزمة شعره هو حرباء، فرد متذبذب لا يخلص لأحد، ولكنه ساحر (أو متلاعب) لدرجة أننا نرغب في تصديق أكاذيبه. إنه قادر على أن يعدك بالمستحيل وأن يرتجل لكي يوهمك بصدق وعده، فهو يملك حساً كبيراً للخروج من الورطات، ويسمى هذا الحس أيضاً بحس الارتجال. وهذه الخصلة خاصة في البلدان التي ما يزال الشارب فيها مقبولاً في نظر الجميع كحلية رجولية كما في البلدان العربية أو الإسلامية أو بلدان حوض المتوسط. ولكن الشارب أصبح أيضاً شارة تجمّع الشاذين جنسياً في نيويورك وسان فرنسيسكو منذ السبعينيات. إن كل حلية من شعر هي تذكر، هي ذئب كرنفالي تلبّس وجهاً يصيبنا عريه بالانزعاج. يغطي الشارب الشفة العليا، شفة الغضب والكذب. فهل يخفف من غلواء الأول لصالح الثاني؟ الحق يقال إن أصحاب الشوارب غالباً ما يتصفون بالغضب الشديد أينما كانوا. فهل يتصفون أيضاً بالكذب بنسبة أكبر؟

الأنف

(الفطنة والمهارة)

الأنف زائدة تستخدم في التنفس ولكن شكله
قد يقطع أنفاسك.

الأنف هو موضع حاسة الشم (هذا شيء منطقي)، وموضع المهارة (منطقي بدرجة أخف)، وهو أيضاً خط الطول للكَرِزمة التي يوجد موضعها الرمزي في النظرة (التماثلية). وهذا ما يدفعني للقول إن الأنف يمكن أن يغزو مجالات شتى بشرط حُسن استخدامه. فيما يخص الجنس، يتأتى التقارب بين الأنف والجنسانية عن علاقة ميكانيكية حيوية سأشرحها فيما بعد.

أنا لا أشير إلى شكل الأنف، فسواء كان دقيقاً أم بارزاً فهو لا يدخل في الحسبان. سأركز بالأحرى على حركته بوصفه ممثلاً رئيسياً للوجه. لقد لاحظت أن الأنف هو الجزء التشريحي المُعبّر بطريقة مميزة لدى الذين ينجحون أو اللواتي ينجحن في كل شيء، وخصوصاً لدى نجوم السينما من الجنسين، ولدى مقدمي/مقدمات البرامج الذين يبسطون سيطرتهم على برامج télé réalité. فأنوفهم في تحرك دائم، تنفتح على الآخر وتظهر للعيان. نلاحظ، من جهة أخرى، إن الأنف يبقى جامداً نسبياً عند الناس العاديين أياً كان تعبير الوجه. وقد راقبت أيضاً بعض المشاركين في تدريباتي الجماعية بينما كنت أطلب منهم أن يغلقوا عيونهم ويركزوا انتباههم على أنوفهم. وباستثناء حركة طفيفة تُعرف بالمنخرين المبهوتين، كانت أنوف زبائني تستند على طبقة مقوية نفسية فقيرة للغاية. إن الأنف الجامد أنف حزين! ويشير بشكل عام إلى أشخاص في حالة إخفاق مهني أو وجداني. فهل للإخفاق أو للنجاح تأثير على حركة الأنف. يغلب على الظن أن الإجابة نعم. فتبعاً لدرجة حركة أنف الفرد تستطيع أن تحدد طاقة نجاحه الحيوي. ويستند هذا المعيار على أساس فحسبنا أن نراقب أنوف الشخصيات الإعلامية ورجال السلطة الذين تزدحم بهم الشاشة الصغيرة ونقارنها بأنوف الزبائن الذين يعج بهم المقهى الأثير لديك أو بأنوف زملائك في العمل. ينتظر الأنوف المتحركة دائماً مستقبل أفضل من المستقبل الذي ينتظر الأنوف الجامدة. وبما أن الأمر لا يتعلق بامتياز مورفولوجي موروث حصرياً وإنما بنشاط عضلي في متناول الجميع، فبإمكانك أن تشمّر عن ساعديك على الفور.

رياضة الأنف

سأعلمك إياها الساعة لكي أساعدك على تحرير أنفك، وهذا يعني أيضاً أنك ستوقظ مهارتك أو فطنتك أو شهيتك الجنسية تبعاً لذلك. حرّكه دائماً عندما تقف لوحدك أمام المرآة أو ببساطة عندما تسير في الشارع إذا كنت لا تخاف أن تتعرض للسخرية. وسينتهي من كثرة إخضاعه للتمرين بأن يتحرر من القيود التربوية التي شلّت تعبيره. والمنافع التي ستجنيها منه على صعيد الغواية بالمعنى الشامل للكلمة ليست قابلة للقياس فهي لا تُقاس، إذ أن الأنف المتحرك هو دائماً أشد جاذبية من الأنف الجامد ولو كان مكتملاً من الناحية التجميلية. إن حال الأنف هو حال أجزاء الوجه الأخرى التي تصيبها النرجسية بالجمود في جمالها البارد لدى عدد كبير من الرجال والنساء. بإمكانك للوهلة الأولى أن تنطق حروفاً مثل U M,O,P,et من أجل فتح المنخرين وإغلاقهما. ولكن إلى جانب استعمال هذه الحروف اجعل أنفك يدور في كافة الاتجاهات كلما سنحت لك الفرصة بذلك. فرياضة الأنف تمنح القوة والطاقة والحرية على الصعيد النفسي. كما تخلصك من المشاعر الملوثة كالخوف من التعرض للهزء أو السخرية،

والخوف من عدم إثارة الإعجاب، والانطباع بأنك زائد عن الحاجة، وخصوصاً الشعور بافتقارك إلى المهارة. احتسب لحركات أنفك عندما تدخل في جدال مع شريكتك أو أصدقائك، وعندما تضحك أو تغضب. امنحه منبراً يعبر من خلاله عن ذاته، وسرعان ما ستجني منه امتيازات إغرائية بحيث ينتهي بك الأمر بالعثور على شكله الأصيل أو الجذاب وخصوصاً إذا كان يبدو لك عادياً أو في غاية البشاعة قبل انشغالك به.

إن أنف Depardieu في منتهى البشاعة، ومع ذلك نجح هذا الممثل في جعله جذاباً. لماذا؟ لأن أنفه يمتلك حرية التعبير عن ذاته بعكس أنفك.

أنف الحب، أنف الكره!

هل للارتياح أو النفور صلة برائحة الآخر؟ إن التعابير الاصطلاحية التي تعظّم الدور الاجتماعي الوجداني للأنف كثيرة: «Je ne peux pas le sentir, celui-là!» (لا أستطيع أن أشم رائحته[1])، «Il n'est pas en odeur de sainteté» (لا يفوح برائحة القداسة)، «avoir quelqu'un dans le nez» (دخل أحدهم في أنفه)[2]، «se bouffer le nez» (أكلت أنفها)[3] قبل الطلاق ممن أحببت حباً جماً، الخ.. الخ... ويغلب على الظن أن الرائحة ما تحت عتبة الشعور تلعب دوراً في الميول الفجائية، وهي بالتعريف لا عقلانية. فمن الممكن أن نقع تحت تأثير رائحة فرد من الأفراد أو أن ننسى انطباعنا البصري الأول الإيجابي عنه لأنه يضع رائحة كريهة للغاية. ولكن ثمة أيضاً دور لمورفولوجيا الأنف إلى جانب وظيفته الشمية.

من المعلوم أن شكل الأنف قد يفسد تناسق الوجه. ولكن الشيء المجهول هو أن الخيار الوراثي للأنف لا يتم بتاتاً بمصادفة التصالبات الجينية. فأنف من سيصبح راشداً في المستقبل يقع عليه الاختيار إن صح التعبير وفقاً لمواصفات متناسقة شكلية نفسية أساسية تتموضع جذورها في الانفعالات المسجلة بدءاً بالمرحلة الجنينية وانتهاءً بنمو الراشد. يشابه الفرد في طفولته تارة أمه وطوراً أباه وآونة عمه أو خاله أو ذاته، وذلك تبعاً للتأثيرات الانفعالية الايجابية والسلبية التي سيتشربها خلال تطوره.

فشكل أنف الطفل الذي يدخل في صراع مفتوح مع أحد الأبوين يمكن أن يتبدل في غضون بضعة أشهر ويفقد وجه الشبه مع أنف المرفوض من الأبوين. وهناك أكثر من ذلك،

١- لا أستطيع أن أطيقه.

٢- يشعر بالكراهية نحوه.

٣- تشاجر مع.

وهو أن طفلاً من جنس ما أو منطقة ما من العالم أو ثقافة مختلفة تم تبنيه بعد ولادته بزمن قصير من أبوين أوروبيين سيرى أن بعض أوصافه الفيزيائية وخصوصاً أنفه قد تطورت وتحولت بفعل الاحتكاك بالحب الصادق لأبويه المتبنين بحيث تصبح شبيهة بهم كما لو كانا أبويه الحقيقيين. ويلعب الأنف الدور الأساسي في هذا التحول بوساطة المحاكاة الوجدانية، فهو الذي سيتطور ليأخذ شكل أنف أحد الأبوين الذي قرر الطفل التمثل به. وبنفس الطريقة سوف يتحول أنف الطفل المعادي مبتعداً عن شبهه القديم وصولاً إلى تغيير بقية الوجه. ليست الأشياء كما نرى ببساطة تجميل الأنف على يد جراح تجميلي، وخصوصاً أن أنفك سيستمر في التحول مع تقدم العمر، وكذلك حاجتك إلى التمثل الوجداني.

أنف بينوكيو Pinocchio

يطيب لي أن ألوي عنق هذه الفرضية الغبية التي تؤكد أن مجرد تلمس المرء لأنفه هو دليل على كذبه. خطأ! خطأ! من جهة أخرى، إن الأفراد الذين غالباً ما يخفون أفواههم بأيديهم هم أفراد تتميز علاقاتهم مع الحقيقة بنزاع شديد.

زعم باحث أمريكي في مقال نشر في مجلة VSD أن الحركات المقرونة بالأنف تشي بالكذب. وقد بنى مزاعمه على أن الرئيس كلينتون كان غالباً ما يتلمس أنفه خلال مقابلاته المتلفزة المتعلقة بفضيحة مونيكا لوينسكي. إن الخلط في ذهن الجمهور هو إحدى تقنيات تقديم الحجج التي يستخدمها جميع الدجالين لتأكيد تخميناتهم. لقد كذّب كلينتون بخصوص حقيقة علاقاته مع مونيكا لوينسكي، وكذّب بينيكيو فاستطال أنفه. في الختام، عندما يتلمس الإنسان أنفه فهو يكذب، وهذا هو المطلوب!

لقد تبين لي انطلاقاً من هذه الحقيقة الفيزيولوجية ومن خبرة طويلة في مراقبة الحركات أن الأنف يستقطب الاهتمام في حالتين مختلفتين ولكن ليستا شاملتين. تتعلق الحالة الأولى بالتلميحات ذات الطابع الجنسي وسط اجتماع بين الأصدقاء، وتكشف الحالة الثانية الحاجة إلى التفكير ملياً. وهذه هي وضعية الملاكم عند الملاكمة. ويبدو لي أنه من الفطنة تبرئة الأنف من تهمة الكذب لصالح الشك.

الأنف الإيروسي

يتحلق الأصدقاء حول الطاولة في إحدى السهرات. يبدؤون بالمزاح البذيء بدلاً من شرب الخمر. لا فتيات حول الطاولة لكي يُشعرنك أنك تسيء التصرف، فلا يوجد سوى شبان. يتلمس الجميع أنوفهم وهم يضحكون. يُعزا هذا التلمس للأنف إلى التلميحات الجنسية التي

تسيل كالخمر. يتلمس كل واحد منهم طرف أنفه بدلاً من عضوه الجنسي، فهذا أكثر لياقة حتى بين الأصدقاء. ينبغي على المرء أن يطمئن موضع ثقل ملذاته وخير ممثل لمهارته في مجال العلاقات الجنسية.

وفي سياق اجتماعي بحت، يحك سكان المحيط الهادي الأصليون أنوف بعضهم البعض مثلما نتبادل نحن القبلة الودية أو الاجتماعية. يرى الإتنولوجي Malinowski أن هذه العادة تخفي الحاجة إلى أن يشموا بعضهم بعضاً بينما يشم المنخران رائحة الجسد الآخر. إلى أي درجة لا يرتبط هذا الحك بتمثل الأنف باعتباره تمثيل رمزي للعضو الجنسي في ذهن السكان الذين يدأبون على مثل هذه الممارسات؟

إن تغذية أوعية الأنف عند الإثارة الجنسية تجعل هذا الأخير شديد الحساسية للمس. والدليل هو تزايد تكرار احتكاك الأصابع بالأنف عندما يكون حديث المتحدثين في استوديو التلفزيون يدور حول الموضوع الأكثر تداولاً منذ طرد آدم من الجنة. جرّب ذلك، كلّم أصدقاءك عن الجنس وسوف ترى أنهم يخفون أنوفهم وهم يضحكون أو يتلمسونه والجلسة ما زالت منعقدة.

وهناك معلومة تكاد تكون مجهولة، وهي أن لحس أنف الشريك في ليلة صيفية حارة هو سلوك جنسي للغاية مع تأثير فوري على ميكانيكية الجنس لدى الذكر والأنثى.

وحركات الأنف؟

نجد بين الحركات المرتبطة بالجنسانية غير الشفهية حركة الملقط بالإبهام والسبابة على شكل ٧ التي تخفي الفم وتحيط بالأنف كالإطار للحظة قصيرة. يتعلق الأمر هنا بمحاكاة لا شعورية لإشارة داعرة أصلها عربي يُصوّر فيها طرف الأنف مسبقاً قضيباً في حالة الانتصاب. وهي أيضاً حركة تقليدية في انجلترا من أجل الهتاف ضد الحكام الرياضيين. وقد تشير هذه الحركة التي نؤديها من دون النية في الأذية إلى إحباط جنسي مثلما أن الرجل الذي يمدّ نحوك إصبع الشرف غالباً ما يكون محبطاً ولكن ليس بالضرورة على الصعيد الجنسي.

إذا لاحظت عند محاورك نوعاً من الارتعاش في المنخرين كالذي يحصل عند الحصان، فاعلم أنه يعبر بصورة لا شعورية عن نفاد صبره. وإذا كان الأمر يتعلق بلقاء جديد فقد يشير نفاد الصبر هذا إلى أنك تهدر وقتاً ثميناً بتصبيره أو تصبيرها بدلاً من الانتقال إلى الأشياء الجدية. وإذا داعب حد الأنف بطرف سبابته مستنداً على مرفقه وهو يرقبك من طرف عينه، فهذه حركة إيروسية للغاية، وتعني أنه يداعب عضوه الجنسي أمامك من دون تصنع للحياء. ليست هذه الحركة حكراً على الذكر وحده.

أنف لا جدوى منه

إنه يستقطب اهتمام من يعتبرون أن الطبيعة لم تدللهم، شأنه شأن كل ناتئ جلدي. ستلاحظ بسهولة أن الأفراد الذين تنسجم أنوفهم مع الوجه انسجاماً مثالياً لا يميلون إلى اللعب به في جميع الاتجاهات، كم يميل من لا ينعم بهذا الحظ، فمن له أنف مسطح غالباً ما يمسكه بالإبهام والسبابة، ومن له أنف مدبب أو طويل جداً يسطّحه. أخيراً، يميل بعض الأفراد الذين يتباهون بنرجسيتهم إلى الإشارة إليه غافلين بسبابة بريئة.

يلفت ديزموند موريس انتباهنا إلى أن الأنف البارز المكتنز لجنسنا هو قَسَمَة فريدة أخرى وغامضة يعجز أخصائيو التشريح عن تقديم تفسير لها. فالبعض يفسرها على أنها مجرد تنوع وافر من دون أيّ معانٍ وظيفية. من الصعب الاعتقاد أن شيئاً بمثل هذه الايجابية وبمثل هذا التمايز أيضاً بين أنوف الأوالي قد تطور من دون وظيفة دقيقة. عندما نعلم أن جدران الأنف الجانبية تحتوي على نسيج إسفنجي قابل للانتصاب بسبب توسع الأقنية الأنفية والمنخرين عن طريق توسع العروق عند الإثارة الجنسية، يحق لنا التساؤل عن عدم منفعته المفترضة.

ومن المدهش أن نلاحظ أن الرسامين في تصويرهم للكائنات القادمة من خارج كوكب الأرض لا ينسبون إليهم بتاتاً أنفاً بارزاً كما لو أن هذا التفصيل المورفولوجي من شأنه تمييزهم عن الجنس البشري. إن الأنف هو بالفعل إشارة إلى الإنسانية حصراً، وهو يتيح تمييز البشر عن الحيوانات وعن الرجال الخضر الصغار. من جهة أخرى، إن وظيفته الشمية الواضحة تقربه من عاطفة يتقاسمها الإنسان مع الثدييات الأخرى، وهي الحنان. تستخدم الأم بصورة طبيعية الأنف لتقيم علاقة حنان مع رضيعها أو طفلها. فهي تداعبه وتشم رائحته بطرف أنفها في الوقت نفسه. فهل هذا سلوك إنساني جد حيواني أم يجب أن أكتب العكس؟

الأنف التنبؤي

إذا كنت عرضة لتواتر عالٍ من التهابات الأنف (التحسسية أو غير التحسسية) فمن المفيد أن تمعن التفكير في الخدمة التي لم تؤدها لك حاسة شمك وأنت في طريقك مؤخراً إلى مركز عملك. ليس الزكام بريئاً بتاتاً، فهو دائماً إشارة نفسية جسدية قوية يرسلها لك اللاشعور لكي ينبئك بأن حاسة شمك معطلة. عندما يتفق لي أن أقدم هذا التفسير لشخص مزكوم، فإنه لا يصدق كلامي. إنه تفسير غير مقبول أو تفسير غبي لمعالج نفسي ممن يترددون على الصالونات. يبدو لي بديهياً أن الأنف المسدود يفقد حاسة الشم. وإذا فقد المرء حاسة الشم فقد يكون ذلك جهاز إنذار لتبليغه بأنه يسير في الطريق الخطأ، أليس كذلك؟

في الحالات القليلة التي أصبت فيها بزكام شديد (من نوع التهاب الجيوب) لم أشفَ منه إلا بالبحث عن الكبوة التي كانت سبباً في ذلك.

دخلت إلى عيادتي وأنفها يسيل كأنه نبع ماء. قالت لي بلكنة ألمانية سيئة جداً: «لن أذهب إلى مكتب عملي».

أخضعتها للتنويم المغناطيسي لمساعدتها على تصريف المشكلة الباطنية. كانت تعمل منذ فترة قصيرة في شركة كمصممة ملصقات دعائية. كانت إدارة الشركة سيئة للغاية، وكانت عاتبة على نفسها لأنها كانت تفتقر إلى الفطنة (تلك كانت عباراتها تماماً) بقبولها لهذا العمل. وبعد بضعة أسابيع من بدء العمل في الشركة بدأت تعاني من التهاب مزمن في الأنف. ولما أدركت أن هناك رابطاً حقيقياً بين التهاب الأنف وبين افتقارها للفطنة على الصعيد المهني قررت تقديم استقالتها إلى صاحب الشركة، فتوقف سيلان أنفها في غضون دقائق معدودة وشفيت من الالتهاب بعد نصف ساعة.

إن أكثر من ٨٠٪ من التهابات الأنف ذات منشأ نفسي. اعرف ما الذي يسبب لك الزكام وسوف تشفى بعد ساعة. غالباً ما تنجم الأمراض السارية للمجاري التنفسية العليا (التهاب الأنف، التهاب القصبات، التهاب الجيوب المعاودة أو غير المعاودة) عن ضعف المقاومة غير النوعية التي من الممكن عزوها إلى ظهور حالة اكتئابية عابرة. تسبب كل مبادرة تصطدم بطريق مسدود مثل هذه الحالة. فيصبح التهاب الأنف أول إشارة تنبئك بافتقارك إلى الفطنة (الأنف المسدود) التي أدّت بالمريض إلى هذا الحد. وللعلم، إذا كان صديقك الجديد يُبقي على أوساخ أنفه أكثر مما يمخط فاعلمي أن ذلك يعني أيضاً أنه يحافظ في باطنه على مصدر المرض الذي يقود إلى فشل شركاته. ولو كنت مكانك لفكرت ملياً قبل أن أشاطره حياته أو أن أقفز إلى سريره بعزم قوي.

أوساخ الأنف

يقضي الرجل الجالس أمامك وقته باللعب بفتحتي أنفه دون أن يسأل نفسه إن كانت هذه العادة تزعجك. أنت في حضرة فرد مزعج

وسواء كان ينظف أنفه من الأوساخ أم لا فهو يعتبرك شخصية افتراضية مثلما هو نجم télé réalité. لنتخيل أنك امرأة وأن الشخص الذي يلعب بفتحة أنفه يحتمل أن يكون شريكك في اللعبة الغرامية. لا تموتي غبية! اعلمي أن هذا الشخص بحشره لأصبعه في أنفه يؤكد أمام ناظريك افتقاره إلى المهارة الجنسية. اطمئني فهو ليس مصاباً بالعجز الجنسي ولكنه عاجز

تمام العجز عن أن يقدم لك اللذة بنفس السعر من نوع اثنان في واحد. ولا تمثلين في نظره سوى مهبل على قوائم. إن مهارته الجنسية تقارب الصفر المطلق.

ويتغير التفسير بتغير السياق

هي تنظف دوماً فتحة أنفها بخنصرها.

إنها مصابة بعقدة الفوقية، ويمكن تشخيصها في الدقائق الخمس الأولى من لقائك بها. تميل محاورتك إلى الدخول في نزاع مع كل من يقترب منها كثيراً. ابق على مسافة بعيدة عنها.

هو ينظف منخريه بسبابته.

تكشف هذه الحركة احتقاراً تاماً للقواعد التي تضبط العلاقات الاجتماعية. وهو بشكل عام يفوّت على نفسه كثيراً من الفرص من فرط نفاد صبره إذ غالباً ما تكشف هذه العُرّة الحركية افتقاره إلى المثابرة. ليس تنظيف الأنف من الأوساخ حركة مُلوثة دائماً إذا قام الفرد بها على انفراد أو إذا كان بمفرده. فهذا سلوك يدل على العناية بالنظافة ويهدف بصورة لا شعورية إلى التخلص من الأفكار المشوشة.

سوف تتبين أن العلاقة الرمزية بين أوساخ الأنف وبين الأفكار المشوشة لها ما يبررها تماماً دون أن يكون هناك حاجة إلى المصادقة على صحتها. إن هذا شيء واضح وضوح الشمس! فإذا فوجئت من الآن فصاعداً بتنظيفك لأنفك بصورة شعورية فستعلم أنك بحاجة ماسة للقيام بحملة تنظيف في أفكارك الشاردة.

نصيحة المعالج النفسي

في ختام هذه العُجالة المخصصة للأنف، لا تنس أن الحكة في هذا الموضع هي بصورة عامة تعبير عن الحيرة أو التردد كما لو أن حاسة الشم مفقودة. إنها مجرد ردة فعل التوتر إزاء حالة من الشك بوجه عام، وليست كما يزعم بعض الباحثين الأغبياء الذين يؤكدون ملء أفواههم أن الكذابين هم الذين يحكّونه دون سواهم. ما زال أمام أنف بينيكيو أياماً مزهرة. ولا تنسَ أيضاً رياضة الأنف اليومية إذا أردت أن ترفع من شأن مهارتك أو أن تطلق فطنتك من عقالها.

تعليق الحِلى في الأنوف

أكبر الظن أن تعليق الحِلى في المنخرين قد نشأ في الشرق الأوسط منذ أربعة آلاف سنة تقريباً. ومنه امتد إلى الهند في القرن السادس عشر حيث سرعان ما انتشر بين الطبقات النبيلة. وكان نوع الحِلية التي تزين المنخر وسيلة لتمييز الطبقة والموقع الاجتماعي الذي ينتمي إليهما

حاملها. وقد أدخل الهيبيون العاشقون للهند هذه العادة إلى الغرب في الستينيات. ثم شاعت بعد ذلك في الثمانينيات بين «البانكس» إلى أن أصبحت موضة شعبية تماماً في السنين الأخيرة. المنخر الأيسر للبنات أو للبنين المدلعين من أمهاتهم، والمنخر الأيمن للبنين أو البنات المدلعات من أبائهم؟ يلاحظ أن موضة تعليق حلية في المنخر الأيسر أكثر شيوعاً من موضة تعليق حلية في المنخر الأيمن، ولا يلاحظ بتاتاً موضة تعليق حلية في كلا المنخرين في وقت واحد. والمقصود هنا هو التمثل بأحد الأبوين ولكنه قد يشير أكثر إلى رفض لا شعوري لصورة أحد الأبوين التي وقع عليها الاختيار. لذلك فإن تعليق الحلى في المنخرين يفضي أيضاً إلى رمزية صريحة واضحة.

المنخر الأيمن

هو المنخر الأثير لدى الهندوس. وهو يرمز إلى الروحانية أو الحظ أو الحدس أو القضاء والقدر. ينظر الفرد القدري، إن كنت لا تدري، إلى الحياة وهي مدبرة، وينظر الفيلسوف (الذي يحب الملذات قليلاً) إلى الحياة وهي مقبلة. فاختر معسكرك واختر منخرك!

المنخر الأيسر

يرمز إلى اللذة والسخاء والدعابة والتساهل. وتعليق حلية في هذا المنخر يضمن السعادة في الدنيا لانتفاء مكان في الجنة.

تعليق الحلى في الوتيرة الأنفية

ويكون في الجدار الأوسط للأنف. كانت جماعة بابو في غينيا الجديدة يعلقون فيه حلية من عظم أو من خشب. وغالباً ما يعلقون فيه حلقة على شكل حدوة حصان، وكانت هذه التميمة ترمز في الأصل إلى أعضاء المرأة التناسلية. وكان مجرد تعليقها في الماضي فوق مدخل البيت وسيلة للإبعاد الشر ومنعه من النظر إلى داخل البيت، ثم أصبحت فيما بعد رمزاً للخصوبة.

جذر الأنف

وهو الموضع الحركي والرمزي للغضب. وهو أيضاً موضع المهارة والفاعلية. فهل يكون يا تُرى دواء ناجعاً لتهدئة احتقان الدم لدى الفتيات الجميلات الغضوبات؟ إن الغضب طاقة متفجرة وكثيفة. وإذا ما تم تصعيده يصبح ركيزة قوية للفاعلية. تلك هي الصلة التي تربط بين الطبع سريع الغضب وخصلة المهارة. ومما يؤسف له أن تعليق حلية في جذر الأنف هو من الندرة بحيث لا أستطيع تأكيد التشخيص الذي أتقدم به.

وفي الختام...

كانت الفطنة والمهارة دائماً متساكنتين. وهاتان الخصلتان ليستا موروثتين، إنما نكتسبهما من كثرة الملاحظة والاستماع والتأمل. وهذا يعني أن كل من يرى بدلاً من أن ينظر، وكل من يسمع بدلاً من أن يصغي، وكل من يفكر بدلاً من أن يتأمل، قد حُرم من الفطنة والمهارة، وما المهارة سوى ثمرة النبوغ الفطري المكتسبة.

الأذنان

(الأنانية وهذيان المطالبة)

الأذن اليمنى: هي الموضع الرمزي للأنانية. يعاقب الأناني السليب، العاطل عن العمل، الذي ليس له مستقبل منظور، المجروح في كبريائه أو عزة نفسه، ذاته أحياناً فيتحول إحباطه إلى آفة جسدية تصيب أذنه اليمنى. ولكن الأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو مراقبة الأفراد الذين يتلمسون أو يتحسسون شحمة الأذن اليمنى بمجرد أن يُطلب منهم القيام بعمل طوعي. فهذه العُرّة الحركية هي العلامة التجارية للفرد الأناني بشهادة.

الأذن اليسرى: هي إحدى المواضع النفسية الجسدية للمطالبة. تولّد أحياناً الحالات التي يتعرض فيها الفرد للسلب والفشل والحرمان من حاجة مشروعة أو تعتبر كذلك، والنفي والنبذ والكره واللامبالاة أمراضاً في الأذن اليسرى كزيادة الإفرازات الدهنية وآلام غير عادية في الأذن الداخلية وبثور معاودة داخل القناة السمعية وسدادات صملاخية معاودة. ولا يعبأ الأخصائيون بتاتاً بالمنشأ النفسي لمثل هذا النوع من الإصابة. الحق يقال إنه لا يوجد أي محلول من النوع النفسي لتصريف أذن مسدودة. إن تلمس شحمة الأذن اليسرى علامة فارقة على الإحباط، وقد تسنى لي ملاحظة ذلك عند كثير من المصابين بهذيان المطالبة، فقد كانت مسامات جلودهم تنضح بالإحباط.

وفي مجال الغواية تقع رمزية الأذنين رهينة في يد الجنسانية. فتصبح الأذن اليسرى الموضع الرمزي للاستيهام، وتتحول الأذن اليمنى إلى موضع للإيروسية. وتضيف شحمتا الأذنين

معنى أكثر دقة لكل أذن. فالشحمة اليسرى تمثل الاستيهام بالإضافة إلى الشعور اللذيذ بالذنب. تكشف فردة حلق في الأذن اليسرى فرداً استيهامياً غامضاً. أما الشحمة اليمنى فهي مرادفة للإيروسية وانتهاز الفرص، وهما صفتان متلازمتان بصورة مثالية. تشير فردة حلق في الأذن اليمنى إلى فرد إباحي.

ترمز الشحمتان مع بعضهما إلى كل حساسية، وتدخل في ذلك طبعاً القابلية للإثارة الجنسية.

يمكن أن نستخلص من ذلك النصيحة التالية: إذا عضت صديقتك شحمة أذنك اليمنى عضاً خفيفاً متكرراً فعليك أن تبادر بالانتقال إلى الأمور الجدية. أما إذا عضت شحمة أذنك اليسرى عضاً خفيفاً متكرراً فدعها تقوم بالمبادرة إذا كنت راغباً في الاستسلام للغواية.

الأذنان بمثابة عَلاّقة أو شمّاعة

ليست الأذنان دائماً امتيازاً تجميلياً ولكن من النادر أن نقيم لهما وزناً كبيراً كصفة جمالية. تمتلك بعض النساء الرائعات أذنين بارزتين مثل أذني Dumbo l'Eléphant[1] دون أن يلحظهما أحد. الأذنان هما حمالتان للأقراط التي تُعلق بهما من أجل إبراز جمال الوجه. يتدلى زوج من الأقراط الكبيرة الحجم من شحمتي أذني تلك المرأة الجميلة التي ترقبها بطرف عينك.... كلما كانت أقراط الأذنين كبيرة كلما كشفت إحباطاً وجدانياً، لا بل جنسياً. إن الرغبة موجودة ولكن اللذة ضربت لها موعداً عرقوبياً إن صح التعبير. يسوءني أن أسحب البساط من تحت رجليك! طبعاً إذا طرحت السؤال بكل بساطة على صاحبة الأقراط الدائرية فسوف تجيبك بأن الكاتب يتفوه بالترهات، وبأنها راضية تمام الرضا عن حياتها الغرامية. هل تعترف أنت لها أنك تعاني أحياناً من القذف السريع؟ اكتشفت مع مرور السنين على ممارستي للعلاج النفسي علاقة سببية بين البرود الجنسي (العجز عن بلوغ النشوة الجنسية) وبين وضع أقراط كبيرة في الأذنين. تعني الأقراط المتدلية أيضاً دعوة مبطنة إلى المضاجعة. فأقراط الأذنين كما نرى ليست زينة بريئة فحسب. اتفق لي أن وجدت نفسي مرة في مقابلة مع مقدمة إحدى البرامج التلفزيونية، وكانت تضع بالمناسبة هذا النوع من الأقراط المتدلية. وكان من المقرر أن تسألني عن هذا التفصيل «الطريف». لكنها حاذرت طرح السؤال. فسواء كانت الأقراط متدلية أو على شكل

١- رسوم متحركة للأطفال - (المترجم).

حلقات فهي الأشكال الوحيدة من الأقراط التي تحمل حقاً معاني. إن الأذنين الخالية من العيوب على الصعيد الجمالي نادرة للغاية. ولكن إذا كنت تمتلكين أذنين جميلتين برأي المقربين فأنصحك أن تقصي شعرك قصيراً جداً لكي تبرزا فتراهما عيون المعجبين بك. وأنصحك أيضاً أن تختاري الأقراط التي تجذب الانتباه إلى صورتهما الجميلة دون إثقالهما بالزينة.

من الجنس إلى الأذن

يذكر ديزموند موريس أنه قد سجلت حالات فردية لذكور وإناث بلغوا بالفعل النشوة الجنسية على أثر إثارة شحمة الأذن. الحق يقال أن ملاحظات في الماضي القريب قد برهنت على أن شحمتي الأذن تنتفخان وتحتقنان بالدم أثناء لحظات الإثارة العنيفة. ومن المؤكد أن تدفق الدم يجعلهما حساستين جداً للمس. وجاء في تقرير Kinsey أنه يوجد حالات نادرة بلغ فيها الرجل أو المرأة النشوة الجنسية في أعقاب إثارة الأذنين.

وفي السياق نفسه

إذا داعبت فتاة جميلة مجهولة قد تعرفت عليها للتو شحمة أذنها بصورة شاردة بالإبهام والسبابة

فهي تكشف لك سر عيبها الأثير، ألا وهو الاستمناء عن رضا وطواعية. وعندما يؤدي الرجل الحركة نفسها في إطار من الغواية فهو يقوّم فرص نجاحه في غوايتك. إذا تغير الجنس يتغير المعنى!

عرفت صديقة تعشق أن أعض لها شحمتي أذنيها عضاً خفيفاً. وكانتا في منتهى الحساسية بحيث كانتا تحتقنان بالدم ما أن تشعر بالإثارة. وكانت كلما ذهبت إلى الحلاق وأجلسها هذا الأخير تحت جهاز تجفيف الشعر تحس بالنشوة من الحرارة المنبعثة من الجهاز. كانت أذناها تضربان إلى اللون الأحمر القانئ فتعض على شفتيها لكي لا تصرخ من اللذة على رؤوس الأشهاد.

الأذنان المثقوبتان

الأذنان هما المكان الأكثر شيوعاً الذي يتعرض للثقب بكثرة. تثقب آذان الحفيدات لتفرح الجدات والعمات اللواتي أهدين هذه الأقراط الذهبية الشهيرة التي أصبحت من الماضي أكثر منها من الحاضر، وسرعان ما تقوم هذه الحفيدات بإضاعتها. كان تعليق الأقراط في الأذنين فيما مضى يتيح التمييز بين الشخص الغني والشخص الفقير، ولكن الأمر لم يعد

كذلك. وكان البحارة يعلقون قرطاً في إحدى الأذنين فقد كان يعتقد أن هذه العادة تُحسّن الرؤية. أما الرومان فقد كانوا يقرنون تعليق الأقراط في الأذنين بالغنى والرفاهية. والأذنان هما أيضاً رمز دقيق للقوة الإغرائية. ونخطئ إذ نسترهما تحت شعر الرأس ولو كانتا بارزتين، إذ بوسعك دائماً تزيينهما بالحلى المثقوبة التي تجعلهما أكثر جاذبية ولو لم يقعا من نفسك موقع الإعجاب.

الأذن على التلفون

أعود إلى لازمة حركية أساسية سبق ذكرها في العديد من مؤلفاتي، ألا وهي الاختيار غير الإرادي للأذن التي تصغي في الهاتف. تحدد الأذن التي تؤثرها طريقة تواصلك: انطوائي أم انبساطي. من الأهمية بمكان أن ندرك هذا الأمر لكي نتعلم جني الفائدة من امتيازات التواصل الانطوائي دون مكابدة عيوبه. والشيء نفسه بخصوص التواصل الانبساطي. تتصف الأذن اليمنى بالعقلانية إذ أنها مرتبطة بالمخ الإدراكي. وتتصف الأذن اليسرى بالانفعالية إذ أنها مرتبطة بالمخ الوجداني.

تجسد الأذن اليمنى المستقبلة فرداً انبساطياً في تواصله. وتجسد الأذن اليسرى المستقبلة فرداً انطوائياً في تواصله. يعني هذا باختصار: «قل لي كيف تصغي إلي أقول لك كيف تتواصل مع الآخرين[1]». يتواصل الرئيس بوش (أذكر اسمه للمرة الثانية) بالطريقة الانطوائية مثل جميع الممثلين الجيدين: إنه يتواصل بوساطة أناه بدلاً من أن يتواصل مع نظيره.

وهذا ما يدفعني إلى الاعتقاد أن السلطة الحقيقية ليست في يديه وإنما في يدي Dick Cheney، أو ربما أيضاً في يدي بوش الأب. ولكن الحق يقال إن هذه الملاحظة تستند على مراقبة سلسلة من الصور التلفزيونية والوضعيات الحركية الخاصة برجل السلطة.

تذكر أن المصاب بهذيان المطالبة يتلمس دائماً أذنه اليسرى وأن الأناني يتلمس أذنه اليمنى. ومن الممكن بالطبع الجمع بين هذين الصفتين السلوكيتين، هذيان المطالبة والأنانية، إذ أنه يوجد أيضاً مطالبون اجتماعيون يتدخلون للحفاظ على حقوق الجماعة، ويطلق عليهم اسم النقابيون.

١ـ انظر مؤلفي السابق «Les Gestes du succès, les mots de la réussite, First Editions».

الجفنان

موضع السعادة (الممكن)

ينبغي إقناع الناس بالسعادة التي يجهلونها
ولو كانوا ينعمون بها

مونتسكيو

تلك أمنية صادقة صادرة عن رجل عاصر حركة تحرير العقول في القرن الثامن عشر. تنم هذه الصيغة عن غباء يكاد لا يكون له نظير، فهي تنطلق من فعل غير شخصي «il faudrait» (ينبغي أن)، وفاعله غير موجود، وهو مستخدم بزمن الشرط الذي لا يهم سوى الذين لا يؤمنون بالمستقبل.

ليست جميع الشخصيات التاريخية عباقرة. كيف يمكن للمرء أن ينعم بسعادة يجهلها إلا إذا كان عمره طوال حياته ثلاث سنين؟ يدل الجهر بهذا الرأي الذي أريد له أن يكون قولاً مأثوراً على الإحباط الشديد. أنت تنتفع بملك تجهل أنك صاحبه. يلقي منتسكيو بظلاله وينظر إلى نفسه في مرآة عصره الاجتماعية فيقرر بالإجماع سعادة جميع الجهلة الذين يلتقي بهم. ذلك فيلسوف متوّج كما تتوج شجرة عيد الميلاد بالزينة! لقد ابتدع اللغة الخشبية. إنه برجوازي نبيل آخر يتكلم النثر دون أن يعلم[1].

ماذا عن الجفنين؟

مهمة الجفنين هي حماية العينين من الاعتداءات القادمة من الخارج، ويوكل إليهما أيضاً مهمة تنظيف العين مما علق بها من غبار. وهما ستائر لحمية وعضلية تنغلق بانتظام كغطاء سيارة Volkswagen.

ينغلق الجفنان فيصبح كل شيء مظلماً وتزول «النظرة نحو الآخر». ينفتح الجفنان فيعود العالم إلى الوجود من جديد. إننا لا ندرك قط إدراكاً كافياً أهمية عضلات الجفنين.

١- إشارة إلى شخصية السيد جوردان في مسرحية موليير «البرجوازي النبيل» حيث يسخر موليير من هذه الشخصية التي تكتشف فجأة أنها كانت تتكلم النثر دون أن تعلم - (مترجم).

فإذا كنت عاجزاً عن إغلاق جفنيك فلن تستطيع النوم بعد اليوم، وقد تقضي نحبك من جراء ذلك. إن الأشخاص الذين ينامون وعيونهم مفتوحة هم ضحايا مرض هستيري نادر للغاية.

يُبقي الأفراد الذين يتقبلون التنويم المغناطيسي ويخضعون لغَشْيَة السرنمة (السير أثناء النوم) عيونهم مفتوحة ولكنها لا ترى سوى ما يوحي لها الطبيب المنوِّم. فإذا انصرف الطبيب عن زبونه المنوَّم لفترة قصيرة جداً يميل جفنا هذا الأخير إلى الانغلاق. ينبغي ألا ننسى أن حالة السرنمة هي اعتلال لحالة اليقظة، وهي مرحلة من النوم تصاحب الأحلام (مرحلة الحلم الليلي). فمن المنطقي أن ينغلق الجفنان في غياب المثير البصري والاستيهامي الذي يوحي به الطبيب المنوِّم.

عرضت ذات يوم على مجموعة من الأفراد تعليمهم كيفية التوصل إلى قفل ارتكاسي للجفنين، أي عجز إرادي عن إعادة فتح العينين بعد قفلهما. كان الموضوع يدور حول محاضرة إعلامية عن التنويم المغناطيسي الذاتي، وهو اختصاص مارسته ودرّسته للآخرين لسنين عديدة.

إن القفل الارتكاسي للجفنين هو المرحلة الفجة لحالة وعي هامشي. يبقى الفرد واعياً لما يجري حوله ولكنه عاجز بشكل افتراضي عن فتح عينيه إلا في حالة الخطر. قبل جميع أفراد المجموعة الخضوع للتجربة حتى أشدهم معارضة... بالكلام. مكثت ما يقارب عشر دقائق حتى أخضعتهم لهذه الحالة الشبيهة بالنوم بنسبة ٦٠٪ من الأشخاص الموجودين. فمن أصل عشرة أشخاص بلغ ستة منهم مرحلة القفل اللاإرادي للعينين. فأوحيت لكل منهم القبول بمفتاح القفل والفتح بطريقة العد: ١-٢-٣ للقفل و٣-٢-١-٠ للفتح. سار الفتح على ما يرام مع الجميع ما عدا امرأة شابة بقي القفل العيني عندها موصداً. فسألتها على الفور: «بماذا تشعرين؟» كانت تشعر بالراحة التامة بعد أن انقطعت عن العالم وعن المشكلات الكثيرة التي كانت تنغص حياتها. انتهت إلى الاعتراف أمام الجميع بأنها تتمنى أن تبقى عيونها مقفلة من الآن فصاعداً. وقد اعترفت دون خجل: «إنها لسعادة حقيقية عندما لا تعود مجبراً على مواجهة نظرات الآخرين. ليتكم تعلمون مقدار الجهد الذي بذلته حتى جئت إلى هذه المحاضرة». وأخيراً فتحت عينيها بعد زهاء عشرين دقيقة. إن اكتسابها لهذا القفل العيني قد غيرها تماماً. وقد قالت فيما بعد في إطار إحدى الدورات التدريبية: «ليس قفل الجفنين هو مجرد إغلاق العينين ولكنه إيصاد ارتكاسي يعطيني إحساساً بأنني معزولة عن العالم. أحس بالحماية مثل النعامة التي تدفن رأسها في حفرة. أعلم تمام العلم بأنني لست محجوبة عن الأنظار ولكن هذا القفل العيني ولدّ عندي انطباعاً بغوص أمني في أغوار نفسي. ويمثل هذا الإحساس بالأمن بالنسبة لي شكلاً من

أشكال السعادة. فجفنايا تحمياني من عدوان الصور الخارجية، ومن بشاعة العالم، ومن أذى الراشدين».

لقد أثارت حالة هذه المرأة الشابة الدهشة، ولكنها لخصت تلخيصاً جيداً دور هذين الجفنين اللذين لا نهتم ولا نعبأ بهما، فهما يعملان حتى نهاية الحياة دون أن يتعرضا للعطب، ويضمنان السعادة الحقة التي نسميها أحياناً الحلم والنوم.

الزمن عدو السعادة

يغلق المرء عينيه فيجد نفسه في عالمه الشخصي، في هذه الحديقة السرية التي لا ينازعه فيها أحد. من المعلوم للجميع أن الذات هي منبع السعادة، ولكن لا بأس من التذكير بذلك من حين لآخر. على أنه ينبغي من أجل لمس هذا الإحساس السامي لمس اليد أن نلغي مفهوم الزمن الذي يجبرك على السير إلى الأمام على الرغم من أنفك. يغتال الزمن السعادة لأنه يجبر الإنسان على أن يقيس جهوده. تسخر الجفون المطبقة من الزمن المنصرم، فما أن يطبق المرء جفنيه حتى تُضبط الساعة البيولوجية الداخلية على زمن العالم الداخلي وليس على زمن ساعة اليد، أو زمن العالم الخارجي. يتسارع الزمن أو يتباطأ وفقاً للطريقة التي نديره بها. فعندما نطبق أعيننا ينمحي الزمن لصالح توسع فوري لفضاءات العقل، فضاء المحسوس أو الحلم أو الخيال. إن السعادة الحقة تترعرع في تلك الفضاءات.

بؤبؤ العين

(موضع الحقيقة والصدق)

تمثل العينان انفعالاتنا ونظرة النفس، وهما تستطيعان الكثير لمن يحسن استخدامهما. يلعبان دائماً دوراً في مجال التواصل ما بين الأفراد. بيد أنه ليس من السهل دوماً ترجمة بعض مواقف الشدة بوساطة الكلمات. من جهة أخرى، تثير ارتكاسات بؤبؤ العين الدهشة. سأستشهد من جديد بديزموند موريس حيث يقول: منذ مئات السنين كان رجال البلاط في إيطاليا يستعملون مخدراً مستخرجاً من نبتة اسمها belladone، وكانوا يضعونه في عيونهم من أجل توسيع البؤبؤ. وكانوا يزعمون حينذاك أنه يزيد الجميل جمالاً، ولذلك أطلق على هذه

النبتة اسم la bella donna، وتعني حرفياً السيدة الجميلة. ويصلنا مثال آخر أكثر حداثة من الأول من تجار حجر اليشم في الصين في مرحلة ما قبل الثورة حيث كانوا يلبسون النظارات السوداء من أجل إخفاء توسع بؤبؤ العين الذي أثير من حجر اليشم الجميل الذي كان يقدم لهم هدية. وكان الصاغة في الماضي يراقبون بانتباه بالغ توسع بؤبؤ عين الزبون لكي يرفعوا السعر أو يخفضوه تبعاً لقطر البؤبؤ.

وقد تم اختبار الارتكاسات الجنسية بنفس الطريقة في إطار تجربة علمية. فقد وُزعت صور عارية تمثل ذكوراً وإناثاً على بعض الرجال والنساء، فلوحظ توسع بؤبؤ العين عند المثليين الجنسيين عندما كانت عيونهم تقع على صور عارية لأشخاص من جنسهم، بينما كانت استجابة الجنسيين الغيريين إيجابية مع صور الإناث وسلبية مع صور الذكور. اعلم أيضاً أن بؤبؤ المدمنين على شرب الكحول وتدخين الحشيشة أو القنب الهندي يتوسع دائماً تحت تأثير المخدر. ويتقلص بؤبؤ المريض عقلياً في أثناء الأزمة إلى حجم رأس الإبرة، وهذا ما يضفي على نظرته هذا المظهر المميز الخالي خلواً تاماً من كل محتوى. يدل هذا التقلص الأقصى للبؤبؤ إلى أن نشاط المخيلة يكاد يكون معدوماً. وبالعكس، يُترجم النشاط الانفعالي الشديد بتوسع تدريجي لبؤبؤ العين.

يعبر توسع بؤبؤ العين عن الرغبة الشديدة أو اللذة التي تعقب إشباع هذه الرغبة. ومن المستحيل تزييفه. إن هذه الارتكاسة حيوية ميكانيكية مرتبطة ارتباطاً أساسياً بالجهاز اللمبي (الحوفي) الذي يتحكم بانفعالاتك. ولهذا السبب فإن بؤبؤ العين هو الموضع المطلق للحقيقة العارية، وهو أول تفصيل يجب أن تنتبه له في أثناء المقابلات المهنية.

قد يكون تبدل قطر بؤبؤ العين طفيفاً جداً ولكنه يتبدل دائماً وفق تقلبات العقل. لا أنصحك بتركيز الانتباه على عيني محاورك عندما تكلمه. من جهة أخرى، لا تحيد بنظرك عن بؤبؤ عينه ما أن يشرع بدوره في الكلام. وبقليل من التدريب تتعلم متى يكون كاذباً ومتى يكون صادقاً مع هامش في الخطأ متناهٍ في الصغر.

موضع النفس

تصور قزحية من دون بؤبؤ. ليس سهلاً، أليس كذلك؟ ومع ذلك فالقزحية من دون بؤبؤ هي عين الشيطان. إن البؤبؤ هو النامية التشريحية للنفس الإنسانية، ومن هنا يأتي تقاربه الرمزي مع الحقيقة والصدق. ستكتشف مع الخبرة أن عدداً محدوداً جداً من أصدقائك، سواء كانوا مساعدين أم زبائن، هم أصدقاء حقيقيون. يفصح البعض عن مشاعرهم دون

الإحساس بها. يقول أحدهم: «أحب هذا الشخص بكل معنى الكلمة!» إنها صورة طبق الأصل عن الصدق ولكن بالكلام فقط إذ أن بؤبؤي عينيه متقلصان، ولم يتغير قطرهما قيد أنملة. ويقول آخر «إن مشروعك رائع، وأنا على يقين من أن الإدارة سوف تتحمس له». إنه يتكلم دون دراية ودون إيمان بما يقول لأن قطر بؤبؤه لم يتزحزح واحد على عشرة من المليمتر. ليست نظرة العينين بنفس حرارة الابتسامة المفترسة التي يحدجك بها دليلاً على تأكيداته المزيفة. لا يمكن لبؤبؤ عينك أن يتوسع إلا إذا أحسست إحساساً صادقاً بما تقول. ذلك هو ثمن الصدق وكذلك الحقيقة. وإلا فتدبر أمرك على أن تبقى في الظل لكي تكذب لأن البؤبؤ يتوسع عندما يضعف النور، ولكن تعبير نظرتك قد يفضحك على الرغم من توسع البؤبؤين. عذراً، ليست حقيقة الأمور في بساطة مظهرها.

النظرة

(موضع الكَرزمة)

لا تمثل العينان شيئاً على الصعيد التشريحي النفسي إذا فصلناهما عن تعابير النظرة. ماذا تمثل النظرة مع علمنا أيضاً أن البؤبؤين هما سفيرا النفس والموضع الرمزي للحقيقة؟ مجموعة تضيف وجهة العينين إلى لون القزحيتين وحركات توسع البؤبؤين أوتقلصهما. عندها تكون النظرة كياناً تشريحياً مستقلاً بذاته فتفضح تعابيرها مشاعر يمكن ترجمتها بالكلمات. من شاهد من قرائي وقارئاتي نظرة الميت دون تأثر (وأنا على يقين أن عددهم قليل) سيفهم على نحو أفضل دور النظرة في المقاربة الكرزمية، إذ ما الكرزمة في الواقع إن لم تكن قوة إغراء تصيب إصابة مباشرة انفعالات المحاور أو عدداً أكبر من المحاورين. وقوة إغراء الكرزمة الحقة إيثارية، أو سمحة إذا أحببت. المقصود هو نظرة ترافق الآخر دون أن تشرك معها الأفكار المشوشة لأنا متضخمة أو لشعور بقوة ما.

النظرة الغيرية

يتعلم الفرد ضبط نظرته. إن النظرة التي تأسر هي نظرة فرد أفلح في التخلص تماماً من تلوث أناه الذاتية عندما تحط عيناه على الآخر. من الغريب أننا جميعاً نعتمد هذه النظرة بصورة

طبيعية جداً عندما نتأمل منظراً طبيعياً أو لوحة لفنان عظيم. ويستطيع الممثل الموهوب أن يحاكي هذه النظرة الغَيرية (المتجهة نحو الغير) عندما يطلب منه ذلك. فالنظرة الغَيرية تحتبس الضوء بصورة مختلفة عن النظرة المعاكسة لها: النظرة المتمحورة حول الذات. إنها نظرة انبساطية كما سوف نرى فيما بعد.

الانتقال البصري

تمر ٩٠٪ من المعلومات عبر عيوننا فتثقل رؤيتنا بالعينين بينما يفرز الشعور معنى كل صورة من هذه الصور الكثيرة. إن الانتقال البصري هو سلوك يتميز به قاطن المدينة الذي تكون نظرته محل اهتمام مفرط، لا بل مشبعة بالصور المتحركة واللقاءات غير المؤاتية. ينبغي أن تتجنب التقاء نظرتك مع نظرة الغرباء، تلك هي القاعدة. فنظرة الآخر لا تُحتمل لأنها تفهم على أنها تفحص حقيقي للنفس. ستلاحظ أنك عندما تتحدث مع شخص غريب لا تحدق بتاتاً في عينيه. تقوم نظرتك بمسح شامل لوجهه أو تهرب خارج مجال الرؤيا. وإذا ما سئلت عن لون عينيه فستجد مشقة كبيرة في الإجابة. فالمسح البصري لا يقف عند هذا النوع من التفصيل. إننا لا نتفحص نظرة المحاور دون أن نخلق جواً غير صحي. وإذا اتفق لك بصفتك رجلاً أن التقيت امرأة شابة في الشارع فجذبت نظرها فسوف تقرأ فيها تساؤلاً خاطفاً قبل أن تتفادى نظرتك لتحافظ على مسافة أمنية.

إن النظرة من بين جميع الحركات هي أشد مرايا النفس بلاغة من غير لبس ممكن. ومن الصعب جداً أن نصف بدقة التحولات الفجائية للنظرة. يصدر دائماً عنها شيء خارق للعادة. تُرسل العين، وهي التي تستقبل الصور، بصورة مستديمة انعكاساً للجو الارتكاسي الذي يسود في شعور الفرد.

قانون النعامة

إن النظرات هي من الكثرة بحيث يستحيل تصنيفها بنفس الطريقة التي تصنف بها الحركات. فالنظرة إما ساخرة، وإما وجلة، وإما هاربة، وإما لا مبالية بصورة زائفة، وإما متضايقة، وإما راضية، وإما مستجدية، وإما فضولية، وإما حنونة، وإما مغرية، وإما نهمة، وإما غيورة، وإما طماعة، وإما جامدة، وإما حادة، وإما خاوية، إلى آخره.. أضف إلى أن فحوى النظرة يتغير باستمرار عن غفلة من الشعور. فهي تمثل في كل لحظة توليفاً للموقف العقلي الارتكاسي للفرد في مواجهة حالة ما. ينبغي أن يتعلم المرء مراقبة نظرة محاوريه وهو يسبح في خطابهم لكي يدرك غنى تعابيرها. إن النظرة الهاربة أو التي نشيح بها هي القاعدة عندما

تلتقي بنظرة شخص غريب. فالنظرة المتفحصة يفهمها الآخر على أنها انتهاك لحرمة أرضيته. «لِمَ تنظر إلي هكذا؟»، هي صيغة مكرسة بين الزوجين. وغالباً ما تسيء الزوجة تفسير نظرة الزوج الثاقبة والعكس بالعكس. إنها تولد إحساساً بالذنب الـ (لا) عقلاني. تتيح لنا حركات العينين تحديد العملية العقلية التي يستخدمها محاورنا، وهي تسبق دائماً الصياغة الشفهية. فالمرأة العاشقة تأكل بالمعنى الحرفي للكلمة صاحبها بعينيها بينما الآخر يشعر بالضيق من كونه محط مثل هذا الإعجاب فيحاول إخفاء ارتباكه بإضافة كيلومترات من الجمل لكي ينجو من التنويم الذي تُخضعه له. بصورة عامة، نحيد جميعاً ببصرنا لكي نتفادى المواجهة البصرية مع محاورينا ولو كانوا أقرباءنا. يؤكد هذا الموقف الارتكاسي الشائع على نطاق واسع الدور السحري للنظرة. يتحادث معظم المتحاورين دون أن تتقاطع نظراتهم، وإذا تقاطعت فإنهم يهربون إلى نقطة تركيز خارجية غير مضايقة للآخر. حسبهم الكلمات لتبادل الكلام. فقراءة النظرة بالموازاة مع الخطاب قد تعتبر تشويشاً على الحديث. وتستخدم حركات الجسم كتنشيط حركي مجرد من المعاني أثناء تبادل الكلام ولكن يجب ألا تُترجم في حال من الأحوال. نعوّل على المعنى الحرفي للغة دون أيّ مبادرة تحليلية نفسية لغوية. ذلك هو قانون النعامة الذي يبسط سلطانه في مجال التواصل.

النظرة القاتلة

إن نظرة الفنان الذي يغني أغنية بطريقة تقنية هي نظرة ذاتية، أي نظرة تتجه نحو الداخل. ومثل هذه النظرة تكون باردة، أي مجردة من الانفعال. إنها النظرة المضادة للكرزمة بامتياز. وأياً كانت الحرفية الصوتية التي يمتلكها الفنان فسوف يفقد تدريجياً نصيبه من الحب لدى جمهوره. وهذا أحد المعايير التي تلعب دوراً في البرامج التلفزيونية كبرنامج la Nouvelle Star أو Star Academy، التي يشارك فيها الجمهور بتصفية المتنافسين، وكذلك الحال في كل برنامج télé réalité يقوم على المبدأ نفسه في تعيين المرشحين.

إذا استطاع الجمهور أن يقرأ في نظرة الفنان ثقة مبالغاً فيها، لا بل شكلاً من أشكال التبجح فسوف ينبذه عاجلاً أم آجلاً أو يعاقبه بالعزوف عن اسطواناته وأفلامه. يحتاج الجمهور إلى أن يحس بضعف الفنان الذي يعشقه حتى يستطيع تقديره والإحساس به. نفهم على نحو أفضل المنفعة من صحافة «pipole» التي تجني الأرباح بنشرها مآسي الناس المشهورين بالتفصيل. ولهذا السبب يحب الجمهور الضحايا ولا يحب الفائزين. «تعرض لحادث مثلي في سن التاسعة عشرة من عمره... هل تعقل ذلك؟» لا يستطيع الناس العاديون التماهي بشخصية المتبجح

ولكنهم يتصورون أن في مقدورهم أن يكونوا مكان الضحية. لذا من يظهر بمظهر الضعف ولكن مع الموهبة، بمظهر الضحية لأنه يفتقر إلى ثقته بذاته ويتهدده منافس أكثر منه موهبة ولكنه أكثر تعجرفاً، هو الذي سيفوز لأنه ينتقم لجميع الناس المغْفَلين. ذلك هو الجانب السيئ لمثل هذا النوع من البرامج الشعبية والشعبوية. تنحو نظرة الضحايا دائماً نحو الآخر، إنهم يستجدون العطف من محيطهم، ومحيطهم يحب ذلك لأنهم يخضعون دون أن يهاجموا. إننا نحب التواضع والضعف وبعض الذل من دون إسراف، ونظرة تتلألأ عرفاناً بالجميل نحو هذا الجمهور الشديد القوي. إنها النظرة الغَيرية.

الكَرِزمة طاقة مُوحِّدة

ليست الكرزمة خصلة تحتكرها فرنسا المترفة. فبعض الصبية ممن يقطنون ضواحي المدن ينعمون بها، وصبية آخرون ممن يسكنون في الأحياء الفخمة محرومون منها. لقد شبّهت الكرزمة بقوة إغراء إيثارية، وقد يصاب قرائي بالصدمة من هذه الصورة لأن بعض الشخصيات الكرزمية ليست حقاً أفراداً سمحة أو نظرتها غيرية (نقيض الشخصيات المتمحورة حول ذاتها)، بيد أن قيام حدث مهم في حياة رجل من شأنه أن يحول أي فرد عادي إلى شخصية كرزمية. فنحن جميعاً نمتلك هذه الطاقة الأساسية التي تنتمي إلى غريزة المحافظة على الإنسانية: الطاقة المُوحِّدة التي نسميها الكرزمة. يلزمنا زعماء لهداية الناس. وغالباً ما يتحدر الزعماء من صفوف الشعب. يلزمنا أبطال أو معبودون لكي نتمثل بهم، لكي يأتونا «بالخبر اليقين»، لكي يكونوا قدوة لنا. نتعرف عليهم على الفور من هذه النظرة الفريدة التي يسلطونها على الناس أو على كاميرات التلفزة التي هي بديل عن عيوننا. فنقع على الفور في حبهم لأنهم يسحرون أحلامنا. تلك هي حالة ساعي البريد Olivier Besancenot، و Cohen-Bendit وبعض مقدمي البرامج التلفزيونية الذين يطلّون من أي مكان فيأسرون الجمهور على وجه السرعة، وبعض السياسيين المحنكين الذين نعلم أنهم ليسوا ذوي ذكاء أو ثقافة خارقتين ولكن شخصيتهم الكرزمة تطمئن الجماهير التي تنتخبهم.

إن الكرزمة هي الشرارة الكونية التي تشعل الحب من النظرة الأولى، وفجأة يعظّم الآخر ويمجّد ويجمّل. تحدث هذه العملية انطلاقاً من الرسالة البصرية، مما قرأت في عينيه على غفلة منك.

تخيل أن الكرزمة هي نوع من الحب من النظرة الأولى لأمدٍ طويل بين فرد ما وبين كل من يتماهون به. فالمغني النجم والرجل السياسي والمرشد الروحي ورب العمل ومقدم البرامج التلفزيونية والممثل السينمائي، لم يصبح جميع هؤلاء الحائزين على الكرزمة معبودين

عصريين بفضل النعمة الإلهية. فقد ركب بعضهم الأحداث مجازفاً بحياته، وهذه الأحداث نفسها هي التي جرّت البعض الآخر، وامتلك آخرون أيضاً هذا الوتر الكرزمي فاستخدموا مواهبهم لكي يكتسبوا هذه القيمة المضافة التي ندعوها بالكرزمة.

نصيحة المعالج النفسي

حسبنا النظرة! النظرة النظيفة من الأنا طبعاً. وحسبك من أجل أن تتعلم اكتساب هذه النظرة الغَيرية أن تراقب نفسك في المرآة وأن تفكر وأنت تراقب تبدلات بؤبؤي عينيك. استعمل مرآة مكبرة لكي تميز هذه التبدلات على نحو أفضل إذ أنها غالباً ما تكون دقيقة جداً. تسكن الكرزمة في داخلك مثل التبر الصافي الساكن في أعماق عينيك. استخدم مرآة حلاقة وضعها على طاولة عملك. راقب عينيك من حين لآخر كأنهما عينا شخص آخر. أنظر إلى شخصٍ تحبه وراقب ارتكاسات بؤبؤي عينيك، فإذا لم يطرأ عليهما تبدل فهذا يعني أنك تجد صعوبة في التعبير عن مشاعرك.

إن انفعالاتك خاضعة للرقيب أو ملجومة. فإذا توسع بؤبؤا العين بصورة غير ملحوظة فكل شيء يسير على ما يرام. تعلم اللعب مع انفعالاتك وراقب الارتكاسات المتزامنة لبؤبؤي عينيك. وشيئاً فشيئاً سوف تتحرر طاقة الكرزمة المُوحّدة المحبوسة في داخلك. إن الشيء الأمثل هو أن تصور عينيك بكاميرا ثابتة بينما أنت تلعب لعبة النظرة الغَيرية.

الحاجبان

(موضع الإلهام والإبداع)

ولكن مالفائدة من الحاجبين؟ التركيز على انفعالاتنا والإخبار عن تقلب أمزجتنا ولو افترضنا أيضاً أن وظيفتهما التشريحية الأولية هي حماية العينين من العرق المتصبب من الجبين. يتموضع الإلهام أو الإبداع في الجزء السفلي من الجبين. وفي كلمة sourcil (الحاجب) نجد كلمة source (النبع). نستخلص من ذلك أن الحاجبين المتحركين كثيراً هما الدليل الحركي على سيادة هاتين الخصلتين ولكن ينبغي ألا نستعجل في القول.

الحقيقة البديهية الأولى! تكمن وظيفة الحاجبين الأساسية في التبليغ عن تقلب المزاج. يتحرك الحاجبان إلى الأعلى عند الخوف أو المفاجأة، ويتحركان إلى الأسفل عند الغضب،

ويقتربان من بعضهما البعض عند القلق، ويرتفعان إلى الأعلى في حالة الاستفهام. نرفع الحاجبين أو نخفضهما لكي نبلّغ عن وجودنا عن بعد لصديق. ترتبط أهمية الحاجبين بلا منازع بتعابير الوجه. فكلما تبدل مزاجك تتبدل هيئة حاجبيك فيسفرا عن مجموعة من الدلائل تُفهم فهماً تاماً من دون مفردات حركية.

السيمافور (اللغة البصرية)

الحاجبان هما لغة الوجه البصرية.

تقطيب الحاجبين: يدل عمق التجاعيد بين الحاجبين (في وضعية الراحة) دلالة قوية على عدد المرات التي قام فيها الشخص المراقب بتقطيب حاجبيه طوال حياته.

رفع الحاجبين: يقترن الجبين المتغضن بصورة عامة بشخص تساوره الهموم. فالفرد المهموم الذي حفرت جبينه التجاعيد هو في جوهره فرد يتمنى الهروب. والفرد الذي يضحك وجبينه متغضن هو أيضاً فرد قلق.

الحاجبان المعقودان: هما تعبير عن القلق الشديد أو الحزن العميق. ونلاحظ أيضاً الحاجبين المعقودين في بعض حالات الألم العضال. وهما أيضاً الوضعية الوصفية التي تُصوَر في دعايات الأدوية المضادة لآلام الشقيقة.

رفّ الحاجبين: يرتفع الحاجبان وينخفضان في جزء من الثانية. وهذا الرفّ الوجيز للحاجبين هو دلالة على الترحيب. ويحدث بصورة عامة عن بعد في بداية اللقاء. ولكن ينبغي أن تأخذ حذرك منه لأن هذا النوع من الارتكاس لا ينبئ بلقاء في أجواء ملائمة.

رفّ الحاجبين المتكرر : تتكرر الحركة عدة مرات في تتابع سريع. يقف Groucho Marx وراء شهرة هذه الحركة. يتحرك الحاجبان إلى الأعلى أو إلى الأسفل بسرعة للإشارة إلى استقبال مبالغ فيه، وغالباً ما يكون إيروسياً زائفاً. يؤثر هذا النوع من الإشارة الحركية الرجال ذوو الحواجب الكثيفة فهم يحبون جذب الانتباه إلى هذه الخاصية التشريحية وإلى الرسالة التي تحملها على الصعيد الإيروسي. يشتهر جميع الرجال الذين لهم حواجب شيطانية بحنسانيتهم السادية المازوشية العالية الأداء. يبقى هذا التأكيد بحاجة إلى البرهان.

رفع الحاجبين: غالباً ما يلعب رفع الحاجبين دور الفواصل في الحديث. عندما يتكلم معظمنا بحيوية نقوم بحركات جسدية لكي ندعم كلامنا. فعند كل تشديد لفظي نضيف تشديداً بصرياً. وهذه الحركة الانعكاسية هي أداة إغراء حقيقية يؤديها بعض

الخطباء الشعبيون أمام عدسات المصورين أو عندما يتوجهون بخطابهم إلى قلة قليلة من الناس.

الحاجبان المتراقصان: ويقصد بذلك الحاجبان المتصفان بنشاط حركتهما. فهما يتحركان من أسفل الجبين إلى الأعلى على إيقاع الكلمات الرئيسية. وهما يشاركان أيضاً في الحديث فيرتفعان بصورة منتظمة من أجل لعب دور الفواصل في خطاب المتكلم. تنتمي الحواجب المتراقصة إلى شخصيات لديها حساسية كبيرة. إنها تكره أن يُسخر من هذا الهوس الحركي.

حاجبا مكيافللي: يقطّب محاورك حاجبيه بتقريبهما من جذر الأنف. كان تقطيب الحاجبين في الأصل طريقة مصطنعة بعض الشيء لطرح المرء السؤال على محاوره دون أن يصوغ سؤاله شفهياً. كان لويس جوفيه يلعب هذه الحركة بانتظام. فالهيئة الشريرة المعروفة جيداً من الأطفال ومن رواة الحكايات تكتسب هنا معناها الكامل. يتفاخر الرجل ذو الحاجبين القاسيين بالنوع الهدام. فهل كان جوفيه شخصية هدامة أم قاسية؟ كان على كل حال يحب تجسيد هذا النوع. من الممكن أيضاً أن يترجم الحاجبان اللذان يقتربان من بعضهما بصورة منتظمة الشك الذي يهدم الثقة بالذات لفرد ليس هداماً قط.

الحاجبان اللذان يُحكان: يحك محاورك الحاجبين بطرف إصبعه. أنت تواجه فرداً متذبذباً نزوياً. وخير من يمثل هذه الفئة المنتشرة كثيراً على سطح كوكبنا الصغير هم رجال السلطة الذين يتصفون بمواقفهم غير الثابتة وبمسؤوليتهم النسبية

العناية بالحاجبين: يلحس محاورك وهو مستند على مرفقيه طرف أصبعه قبل أن يمسد حاجبيه. نرى هذا المشهد الحركي الكلاسيكي عند الأفراد الذين يظنون أنفسهم مرشدين روحيين.

تعليق الحلى في الحاجبين: قد يكون تعليق حلية في الحاجب الأيمن إشارة إلى طبع نزوي يشتهر جداً بتمسكه بالتفاهات. وقد يكشف أيضاً حاجة الفرد إلى الكبر وإلى تثمين صورته العامة واكتساب صورة إيجابية عن ذاته في نهاية المطاف. غالباً ما يتباهى الأفراد الرافضين من أمثال «أنا ضد إذا كنت أنت مع» بتعليق حلية في أحد الحاجبين. ولكن ما يجهله هؤلاء المساكين هو أنهم ينتهجون بهذه الطريقة سلوكاً تقدمياً وينبذون التفاهة التي يدافعون عنها أحياناً دفاعاً مستميتاً. باختصار، إنهم يعالجون أنفسهم على الرغم من أنوفهم من متلازمة الرفض، وهي رياضة فرنسية، فرنسية للغاية.

نبذة تاريخية

إن حاجبي المرأة بطبيعتهما أقل غزارة من حاجبي الرجل، لذا فغالباً ما ضخمت هذا الفارق بحلقهما أو بنزع شعرهما قبل أن تعيد رسمهما بخط أكثر رقة. وأصبح حاجبا المرأة أشد إغراءً بإظهار رقتهما وصغرهما. وقد تم لها ذلك خلال قرون بوساطة تقنيات مختلفة مثل الحلق أو المكياج أو النتف. بلغ نزع شعر الحاجبين في القرن العشرين ذروته في العشرينيات والثلاثينيات، ما بين الحربين حيث كان قلم الحاجبين في تلك الفترة في كل محفظة يد. وقد ساهم ملقط نزع الشعر في جعل الحاجب أكثر رقة، واستخدم قلم المكياج لإبراز نعومة تقوسه. وعندما لا تكون المرأة راضية عن تشكل حاجبيها، كانت تستطيع بلا شك نزع شعرهما كلية وإعادة رسمهما كما يحلو لها. كان الحاجبان في هذه الحالة يظهران بصورة شبهة دائمة فوق مكانهما الحقيقي ليضفيا على الوجه مظهراً أقل تجهماً. جاء أغرب مثال على الحاجبين الاصطناعيين من انجلترا في بداية القرن الثامن عشر حيث شاعت في تلك الفترة موضة حلق الحاجبين ليحل محلهما حاجبان اصطناعيان، ولكنهما كانا يثيران الغرابة إذ أنهما كانا مصنوعين من جلد الفأرة.

كانت ترمي هذه الطرق كافة إلى جعل المرأة أكثر جمالاً، إذ غالباً ما كانت الحواجب المتروكة على حالتها الطبيعية تُقرن بطبيعة «لا جنسية» إلى حد كبير.

ولم تكن النساء اللواتي يعملن في ظروف من شأنها كبت أمورهن الجنسية يهتمّن بحواجبهن. ففي الثلاثينيات رُفعت دعوى بين إحدى الممرضات وبين مديرة إحدى المشافي لأن هذه الأخيرة لم تأذن لها نتف حاجبيها. وكان الدفاع يرى أن هذا الحظر مضاد للحريات الفردية، ولكن حكم المحكمة صدر لصالح المديرة. وبالنتيجة حُرّم المرضى من الإثارة الجنسية التي تحدثها رؤية الحاجبين المنتوفين بنعومة. يحظر اليهود على زوجاتهم العناية بحواجبهن لأسباب جمالية. والمزعج في الأمر هو أنهم عاجزون تمام العجز عن تبرير هذا الحظر بغير تصنيفه في فئة التفاهات. ومرة أخرى يساء إلى الدين إساءة كبيرة بسبب معلمين روحيين صغار لا يساوون شيئاً ذا قيمة، سواء أكانوا يهوداً أم مسيحيين أم مسلمين. وعند الذكور اعتبر دائماً أن الحاجبين الكثيفين يشيران إلى سحر الرجل. من جهة أخرى، عندما يتلاقى حاجبا الرجل الكثيفان فوق الأنف، يصبح الأمر مختلفاً. ثمة مثل قديم يقول بأنه ينبغي ألا تثق بمثل هذا الرجل، فهذان الحاجبان شيطانيان. إن التمييز العنصري في كل مكان.

إذا كنت تملكين حاجبين جميلين مرسومين جيداً بشكل طبيعي فلا تترددي في الاعتناء بهما لجذب الانتباه إلى هذه الخاصية، وتعلمي تحريكهما بطريقة جذابة عندما

تتحدثين. لن تجدي أفضل مثال على ذلك من الصحافية Elise Lucet التي تقدم نشرة الأخبار المسائية في محطة فرانس ٣. إنها تمثل في هذا المجال نموذج الحاجبين الثرثارين المغريين. وقد اتفق لي أن شاهدتها في مقابلة لها في محطة أخرى مع إحدى زميلاتها. وبالكاد تعرفت عليها فقد كانت قد نسيت حاجبيها الثرثارين في مقصورتها في المحطة التي تقدم فيها النشرة الإخبارية المصورة. لا بد من الاعتراف أنني وجدتها أقل جاذبية من المعتاد. وهذا يبرهن على أن جاذبية شخص ما ترتبط أيضاً بحركة طفيفة لجزء صغير جداً من جسده.

نصيحة المعالج النفسي

إذا راقبت حواجب محاوريك أو حواجب الذين يبسطون هيمنتهم على الشاشة الصغيرة فسرعان ما تلاحظ تطابقاً بين فقدان إبداع الحواجب الجامدة وبين فائض إبداع الحواجب التي لا تكفّ عن الحركة. هذا تمرين ممتاز لمراقبة السلوك. فالمغنون الذين تبقى حواجبهم جامدة هم مغنون جيدون من الناحية التقنية ولكنهم ليسوا مبدعين. كلما كانت الحواجب متحركة كلما ركز الفنان انفعالاته في أداءه على خشبة المسرح. وخير مثال حي إلى اليوم هو المغني شارل أزنافور. وبما أن هناك رياضة للأنف فبوسعك أن تتعلم تحريك حاجبيك عندما تتحدث. يكفي أن تنتبه لحركتهما. اقرأ مقالاً من إحدى المجلات بصوت عالٍ وركز انتباهك على حركة حاجبيك. فإذا بقيا جامدين فقم بتحريكهما بالقراءة بصورة مبالغ فيها. إن هذا شيء أساسي كتمرين. وحسبك تكرار التمرين كل يوم من أجل تحرير إلهامك أو إبداعك. لا شيء يجبرك على تصديق كلامي ولكن لا أحد يمنعك من المحاولة.

الرأس

(الرفض)

إنه يقول نعم ويهز رأسه من اليمين إلى الشمال مناقضاً في ذات الوقت جهر قناعته. ألم يحصل ذلك لك قط؟ أنا بلى! وقد أحسست بألم الكذب في أسفل الصفن (حيث مستقر الخصيتين). شعرت بخيانة حركية، فجسدي ناقض كلامي باستقلالية تامة. قلت «نعم» من باب المجاملة ولكن رأيي كان «لا». قلة قليلة من الناس ينتبهون لهذا التزييف الشفهي بوساطة

الحركة. «نعم، أنا موافق! كلا، لست موافقاً». وما يزيد في الطين بلة هو أن ضمير المستمع يمحو الـ « لا» التي تعبر عنها الحركة إذ أن قوة الكلمة قد أعمت بصيرته. بيد أن ارتكاس النفي هذا هو حركة تنبئ بارتكاسات محاورك القادمة. فإذا وعدك بالمساعدة فسوف ينسحب في اللحظة الأخيرة بأيّ ذريعة كانت. وإذا أعطاك موافقته فسوف يجد عاجلاً أم آجلاً وسيلة للتنصل من مسؤولياته. يقود النفي بالحركة الذي يناقض الـ « نعم» الشفهية إلى طريق مسدود.

رأس متحرك أو يدان ثرثارتان

إنها لا تكفّ عن هز رأسها علامة على الموافقة. يثير هذا الشيء أعصابي ولكنني أستمر في التعبير لها عن شعوري حيال إستراتيجيتها التواصلية. أرى أن هذه الإستراتيجية بالية غير ملائمة للهدف الذي تنشده. إنها منتبهة إلى انتقاداتي ولكنني أحس جيداً بأنني أصرف طاقتي بلا جدوى.

لقد بان موقفها الآن. عندما يأتي دورها في الكلام، يأخذ رأسها بالحركة بينما تبقى يداها موثقتين إلى سماط الطاولة. ويلعب رأسها دور الفواصل في خطابها. إنني أضيّع وقتي معها ولكنني لا أجرؤ على المغادرة. ينتهي الموعد. قبلات! إلى اللقاء!

لا بد أنك لاحظت أن بعض المقربين منك يحركون رؤوسهم عندما يتحدثون بينما تبقى أيديهم مخفيّة أو مثبتة أو جامدة لا تتحرك. من جهة أخرى، يترجم البعض الآخر حديثهم بأيديهم وقلما يعمدون إلى تحريك رؤوسهم إلا عندما ينفعلون. إن حركة الرأس الارتكاسية هي القاعدة عندما نكون في موقف الدفاع أو في حالة توتر، ومن النادر أن يستخدم المرء يديه لحماية قناعاته بل يستخدمها بالأحرى للإقناع أو الهجوم. فمن الآن وصاعداً نستطيع أن نفترض أن الشخص الذي يحرك رأسه عند الكلام يعبر عن فقدان ثقته، فهو في موقف الدفاع. إن الرأس المتحرك هو القاعدة في المواقف الدفاعية القصوى. ويصبح هذا الرمز الحركي ارتكاساً لا شرطياً عند بعض الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم ضحايا النظام. ففي الإضرابات يعبر المتظاهرون دائماً - عندما يقوم الصحفيون باستجوابهم - عن انتقاداتهم بتحريك رؤوسهم بدلاً من تحريك أيديهم. لقد فاضت مطالبهم فلم يعبروا عن غضبهم بحرية. إن الرؤوس المتحركة هم أفراد قد فقدوا ثقتهم بأنفسهم فيمنعون أيديهم (المناطق الدماغية) من أن تكون طليقة. إنهم يسيئون الظن بأنفسهم أو بالآخرين. لا يمنع تحريك الرأس بالضرورة التدخل الآني لإحدى اليدين، ولكن المراقبة

تتيح لنا أن نلاحظ أن هذا التدخل قلما يكون له معنى. تعود اليد إلى حالتها السابقة ويواصل الرأس حركته.

لماذا تتوقف اليدان عن الحركة عندما يتحرك الرأس؟

تتضمن اليدان الثرثارتان إبداع تماس. عندما تتوقفان عن الحركة، يختفي هذا الإبداع ويظهر عدوه، ألا وهو رفض التغير أو التجديد أو الذهن الرافض. إن الرؤوس المتحركة هم أفراد محافظون، لا بل متعصبون للماضي، ولا يستحسن أن تُعرض عليهم مشاريع ثورية. إن الرؤوس المتحركة هم أفراد رافضون يطرحون أنفسهم كضحايا للتقدم، وهو متوحش بالتعريف.

لماذا يتوقف الرأس عن الحركة عندما تتكلم اليدان؟

لا يمكن للمرء أن يكون إصلاحياً ورافضاً في الوقت نفسه. تشير اليدان المعبرتان إلى مستوى إبداعي وإلى ذهن ينحو نحو تقدم الضمائر. لا تستطيع اليدان الثرثارتان التفاهم مع الرأس المتحرك لأنهم يعيشون على كوكبين متعارضين. إن اليدين الثرثارتين هم أفراد إصلاحيون. واليدان أدوات تماس تستخدم للمس أو للحماية أو للبناء أو للهدم أو للمداعبة أو للضرب أو للإبداع أو للتفكيك. وتعبران أيضاً عن الحاجة الإنسانية لملاقاة الآخر. إن اليدين هما تعبير عن حرية المنطقتين الدماغيتين. فعندما تتحركان تحرران الذهن من سجنيه الاثنين. وعندما تكفّان عن الحركة، يتحرك الرأس كغطاء قِدر فيه ماء بدرجة الغليان. تسخُن الأفكار فتبحث عن منفذ للهروب. فيكون هذا المنفذ عن طريق الجسد. كيف يمكن أن يكون خلاف ذلك؟ تتوقف اليدان عن الحركة أو تحتجبان عندما يحل الضعف أو سوء الظن في الضمير. تتجمد اليدان عندما يتدخل الكذب لحماية الحقيقة. تُشل حركة اليدين عندما يُقابل المتحدث بالرفض أو يُلام أو ينتقد أو يُحارب فيجبر على الدفاع عن منطقة نفوذه. وأخيراً وليس آخراً تُقال اليدان من وظيفتهما عندما يصبح الإحساس بالذنب أو الحزن أو الندم خبزنا اليومي. وفي حالة الاعتداء الشفهي تُوثق اليدان ويُفك وثاق الرأس.

الطفل المُعاقب

إن الأصابع المشبوكة فوق قمة الرأس أو فوق النقرة هي رموز نوايا، ويفضل الانتباه إليها لأنها توحي بنتيجة الحديث. وهذا ما أدعوه حركة تنبؤية لا تبشر بصورة عامة بفأل

حسن. يحس الفرد الذي يؤدي هذه الحركة بأنه مجرّم أو معاقَب. ستعيدك بالتأكيد الأصابع المشبوكة فوق قمة الرأس إلى ذكريات الطفولة. ولكن هذه الوضعية يمكن أيضاً أن تعبر عن معارضة. من المتفق عليه أنها الإشارة الجسدية التي يلجأ إليها سجناء الحرب. وتترجم هذه الوضعية حرفياً الخضوع التام لمن يمتلك السلطة أو القوة. وفي جميع الحالات فاليدان الموثقتان فوق الرأس هما يدان سلبيتان أو متمردتان «أخضع أو لا أحب الخضوع، ولكن أحتفظ بذلك لنفسي». يرتبط كل شيء بالسياق. أتذكر أنه كلما قام أحد محاوري بمحاكاة هذه الوضعية يصبح جو الحديث غائماً. لقد أصبحت النوايا الحسنة الأولية احتباسات، لا بل إحجامات عنيفة غير متوقعة وخصوصاً أن النبرة كانت بالأحرى ترحيبية في مستهل الحديث. إن وضعية الطفل المعاقب هي أيضاً حركة تنبؤية فهي تعني أن الباب قد أُوصد للتو دون سابق إنذار.

هز الرأس

إن هز الرأس هو طريقة إلقاء السلام لفرد مغتر بسلطته التراتبية. وفي مقاربة أخرى يجعل بعض الأفراد من هز الرأس لازمة حقيقية، لا بل عُرّة. وغالباً ما يعبر عنه بحروف التعجب أو بالمحاكاة الصوتية أو التصدية الشفهية المتنوعة والغريبة على حد سواء (تكرار الكلام أو تكرار نهايات الجمل). فحاجة المرء إلى موافقة محاوره بهذه الطريقة هي إشارة إلى القلق الفادح الذي ينتمي خصوصاً إلى اللوحة السريرية للعصاب الوسواسي. فإذا غالباً ما فُوجئت بهز الرأس بشكل متقطع فاعلم أن ذلك تحذير وضعي صادر عن اللاشعور. لقد علقت في نقاش عقيم. إن موافقتك الحركية هي تملص منمط.

الصورة الذاتية أو الصورة العامة؟

إلى أيّ جهة يميل رأسك؟ إذ أنه يميل على غفلة منك. وميلانه أبداً إلى الجهة نفسها. كلما وجدت نفسك في مواجهة مع الآخرين تستيقظ إحدى صورتيك (الصورة العامة أو الصورة الذاتية) فترجّح كفة الميزان إلى الجهة الصحيحة.

تتكون الصورة العامة انطلاقاً من كيان أو وظيفة أو شهرة مكتسبة. وهذه الصورة العامة هي رأسمال ضروري جداً في مجالات نشاط متعددة، ومن النادر أن تتطابق مع الصورة الذاتية. إن الصورة العامة هي أشد ما يمكن مثالية، وأبعد ما يمكن عن الصورة الواقعية، صورة الذات. ولا تنسَ بتاتاً أن الصورة العامة تتكون في نظرة الآخر.

أما الصورة الذاتية فهي تنبهية باطنية (يُتنبه لها من الداخل) لأنا مثالية في عمر مثالي لا علاقة له بالعمر الحقيقي. فبإمكان المرء أن يكون متقدماً جداً في السن ولديه انطباع أن هذا الجسد الذي شاخ تسكنه ذهنية رجل شاب. مما لا ريب فيه أن هذا الانطباع يتلاشى عندما ينظر المرء إلى نفسه في المرآة. إن الأنا المثالية صورة ذاتية مجردة من جميع عقدها أو اضطراباتها أو معوقاتها. إنها نوع من البطل المتفوق الاستبطاني واللا زمني.

يدل ميلان الرأس دلالة أكيدة على طريقة ظهور الفرد بهذه الصورة المزدوجة. يتحكم المخ الإدراكي (الأيسر) بميلان الرأس إلى جهة اليمين، وهو ينضم إلى الصورة العامة إذ أنها تشير إلى فرد يركز جهده في الانطباع الذي يعطيه للآخرين على حساب تعبير الذات. سيكون أقل صدقاً، متمثلاً بالصورة التي أعيد بناؤها، لا بل المزيفة التي يريد توصيلها.

ويتحكم المخ الوجداني (الأيمن) بميلان الرأس إلى جهة اليسار، وهو يترجم الانفعال أو الحاجة إلى صدق الصورة الذاتية القائمة على الاستبطان، وهو على كل حال ليس سوى إحدى الأرضيات المفضلة لنمو الشخصية.

دوران الرأس

يعتبر دوران الرأس الجانبي مع المحافظة على النظر في المحور لازمة حركية ثابتة. وهو معيار تدبير المناخ العقلي على غرار مصالبة الذراعين. يشير أيضاً هذا الارتكاس الحركي الخاص إلى موقفين ارتكاسيين متمايزين، وهما عدم الثقة أو التحدي، بالإضافة إلى بروفلين، هما بروفيل الفائز الافتراضي أو بروفيل المُتحدّ.

ينقل *دوران الرأس إلى الشمال* الرؤية بالعينين إلى العين اليمنى. وترتبط هذه الأخيرة بالمخ الأيسر أو بالمخ الإدراكي. وهو علامة المُتحد. يماثل هذا الدوران عدم الثقة أو الهروب الزائف

«اتبعني، أهرب منك». يهرب المرء دائماً من جهة اليسار.

وينقل *دوران الرأس إلى اليمين* الرؤية بالعينين إلى العين اليسرى المرتبطة بالمخ الأيمن أو المخ الوجداني. ويكتشف الفائز الافتراضي بهذه الطريقة. إن دوران الرأس إلى اليمين هو ارتكاس التحدي الذي يشير بشكل مفارق إلى مرونة علائقية حقيقية.

بعض الحركات التنبؤية

يضع محاورك وهو جالس ذراعه أفقياً (اليسرى أو اليمنى) بشكل ثابت على جمجمته.

إن هذه الوضعية المثيرة للفضول هي ابتعاث لحركة حماية الطفل الذي تعرض للضرب.

يحك محاورك رأسه بقلم أو بمسطرة أو بغرض ما يجده بين يديه.

يرمز هذا الغرض إلى سلاح يتمنى أن يقتلك به.

هي تتكلم وتلتفت باتجاهك بصورة منتظمة.

يُخيل أنها تريد أن تعضك. من الواضح أنها لم تنجذب إلى سحرك اللاتيني.

المؤخرة جالسة على كرسيين

تتيح حركات الرأس قياس بروفيل الفرد الرافض أو بروفيل الفرد الإصلاحي. لقد راقبت العديد من المناقشات السياسية فلم تقبل هذه القاعدة أي استثناء. فالأيدي المتحركة تقدمية وإصلاحية، أما الرؤوس المتحركة فرافضة ورجعية. يتوزع بعض الخطباء الشعبيين بين هذين الموقفين، يتحرك الرأس واليدان بشكل دوري فيشابهون بروفيل «المؤخرة الجالسة على كرسيين»، خصوصاً إذا جاهروا بتمسكهم بتقدم الضمائر. يشير بروفيل «المؤخرة الجالسة على كرسيين» إلى فرد متردد في اتخاذ قراراته ومواقفه محاولاً إقناع نفسه بعكس ذلك، كسكرتير جمعية الحي الذي يظن نفسه نائباً في البرلمان، وكالحارس الشخصي الذي يظن نفسه ستيف ريفز في إنتاج جديد لفيلم «هرقل»، وكالعضو النقابي الذي لا يسيطر على صورته العامة، وكالكاتب المبتدئ الجالس في معرض للكتاب في أحد الأقاليم، الجالس بشكل موارب على كرسي بلاستيكية وهو يراقب الحشد، ويتعطش إلى قراء معجبين بكتاباته المتعثرة. تتأرجح قلوبهم بين الرأس واليدين المتحركتين فينحو التردد نحوهم. تُرى هل سيكونون من الرافضين أم من أنصار تقدم الضمائر؟

الوجه

(موضع إثبات الذات)

إذا كانت العين هي مرآة النفس فالوجه هو مرآة أفكارنا. إنه التوليف المتحرك للمشاعر التي تبعث فينا الحياة. الوجه نجم بين النجوم، وهو بطاقة التعريف التي نلحظها بدايةً عند الفرد. ومما يؤسف له أن إيماءته ليست سكونية، وأن التعابير التي يظهرها ليست دائماً في صالحه. إنه بحسب التعبير الشائع جميل من الخارج وقبيح من الباطن، والعكس بالعكس. إنه شاهد على سعاداتنا اللحظية، والأفكار والمشاعر التي نحس بها تنحت القناع الذي نخفي وراءه أفعالنا السخية أو أفعالنا الأنانية أو أعمالنا الخبيثة. من الصعب أن نتخيل أن الحياة يمكن أن تدب في الوجه على غفلة من الشعور، وأن يظهر تكشيراته دون أن تستطيع الإرادة الواعية الحيلولة دون ذلك. ومع ذلك فالوجه هو بلا ريب الموضع التشريحي الوحيد من جسدك الذي يصعب إخفاؤه إلا إذا أخفيته على سبيل المثال بصورة تامة تحت النقاب. وهو أيضاً الجزء الأكثر تعرضاً للتشنجات. يجمد كل جزء من أجزاء الوجه في سلسلة من التعابير المبرمجة مسبقاً، وهذه التعابير مُلوثة للمظهر العام للوجه. ولا يوجد حتى اليوم وسيلة طبيعية أو اصطناعية لتحويلها. وعلى الرغم من وجود الجراحة التجميلية التي تُحسّن مرونة الجلد تحسيناً سطحياً، إلا أنها تزيد من جموده في برمجته الإيمائية. إن القناع الاجتماعي هو الموضع التشريحي الأشد تعبيراً في جسد الإنسان، وإن لا تعبيرية القناع هي بلا منازع الصفة الواضحة الجليّة التي يمكن أن نلحظها عند الأفراد الذين يتعرضون لأزمة.

من الممكن تحديد حالة اكتئابية كامنة *(نعلمنا الدراسة السريرية أنها في أغلب الأحيان تظهر على المستوى التشريحي النفسي أكثر ما تظهر على المستوى السلوكي)* عن طريق تشخيص لغة إيمائية فقيرة. يجب أن يعبر الوجه بحرية تامة وبطرق مختلفة عن المشاعر التي تدب في الحياة النفسية للفرد. ولا يستطيع أن يأذن لنفسه بذلك إذا لم يع الفرد القناع الحديدي الذي يحبس تعبيريته بصورة دائمة. فالوجه إذ يسجنه الخوف من ترجمة مشاعره يعتريه الذبول وتحفره التجاعيد ويتراخى من فقد المرونة الطبيعية فيشيخ لأن

المشاعر الحلوة أو المرة تنطبع على صفحة الوجه مع مرور الزمن. بيد أنه على الرغم من أن قسمات الوجه التجميلية تتدهور فإن غنى الإيماءات ما زالت قادرة على إخفاء الجمال الذي سرقه الزمن منها.

يستطيع الوجه التعبير عن تنوع غير محدود من المشاعر، بيد أن هناك بعض تعابير الوجه التي يصعب محاكاتها لأنها تتأتى عن عاطفتين متناقضتين أو مكملتين لبعضهما البعض. فالعضلات المنشودة التي تبرز هذه العواطف المرتبطة ببعضها تلعب دوراً دقيقاً يصعب علينا محاكاته كما نريد إن لم يكن مستحيلاً. وعلى هذا المستوى نكتشف ممثلو السينما الكبار، وكذلك الأفراد المعنيين بصورتهم المهنية. راجع نصيحة المعالج النفسي في نهاية هذا الجزء إذا كان وجهك هو من همومك التجميلية.

الوجه الذي خلا من العيوب

إن جميع الفتيات الجميلات محظوظات بامتلاكهن وجهاً جميلاً، إن لم يكن يمتلكن جسداً ذا مقاييس لا عيب فيها. إن الجمال التجميلي للوجه مصعد اجتماعي فوق العادة لكل اللواتي يعرفن على أي من الأزرار ينبغي الضغط من أجل استدعاء غرفة المصعد. ولم يحن بعد زمن كشف النقاب عن سر المشاركات الجينية التي تتحكم بالخيارات المورفولوجية. يا له من ظلم لجميع اللواتي يجب عليهن الاعتماد على ذكائهن لكي يتكرم المصعد الاجتماعي بالتوقف أمامهن، وذلك لعدم امتلاكهن لوجه مشرق أو لشكل خارجي لا تشوبه شائبة. وأيّ سعادة هي يا ترى إذا كانت جميع بنات حواء مشرقات من فرط جمالهن!

يصبح الجمال الموهوب للجميع دون أي تمييز للعرق أو الدين أو الثقافة شيئاً اعتادياً كحقول الهندباء البرية أو كأزهار اللؤلؤ عند قدوم الربيع. ولا تعود هناك حاجة إلى عصابة للرأس أو إلى حجاب لإخفاء الشعر الأجعد، أو حاجة إلى الجدائل الصغيرة من أجل ترويض الشعر الأشعث، أو حاجة إلى الإسراع إلى الحلاق للحصول على تسريحة شعر تحد من عيوب الوجه، أو حاجة إلى تمويه الخصيتين للظهور بمظهر حسناوات الليل في النوادي الليلية الفخمة.

والرجال في كل ذلك؟ جميلون مثل Roch Voisine، أو شهوانيون مثل Chippendales، أو ذوو أجسام منحوتة مثل اليافعين الذين يرتادون صالات الألعاب الرياضية، أو ذوو شعر غزير مثل شعر شمشون، أو حليقو الرأس مثل Yul Brynner. يا له من حلم!

على أن جمال الوجه يصاب بالجمود ويذبل ويشيخ عموماً على نحو سيئ. والمرآة التي لا تخطئ ترجع لك صورة الحاضر الذي تم تخطيه. إن الوجه الذي يذوب إعجاباً بصورته هو وجه بلا مستقبل. وإن ما ينقص جماله الأصيل هو إسهام التعابير التي تقدم له نصيبه الحقيقي من الغواية. تشكل حركة الحاجبين والشفتين والأنف والتجاعيد التعبيرية للجبين المواصفات المورفولوجية الأربعة لشهوانية الوجه.

غواية أم جاذبية؟

إذا أنت لا تمتلكين الوجه الذي كنت تحلمين به، تستطيعين متى شئت أن تستنجدي بالجراح التجميلي لكي يدبر لك ذلك. ولكنك لن تحصلي إلا على حاوٍ من غير مُحتوَى، لأن ما يصنع جمال وجهك هي تعابيره التي لا تستطيع الكاميرا التقاطها إلا على نحو ناقص. قد يكون المرء جميلاً في الصورة وبشعاً في الحقيقة أو العكس بالعكس. كم من امرأة جميلة في الصورة تبيّن أنها أقل من عادية على الطبيعة؟ إن بعض مقدمات البرامج الرائعات بكل معنى الكلمة هن ضعيفات الجاذبية بعيداً عن الكاميرا. لن أذكر أسماء احتراماً لهؤلاء المحترفات الضامنات لنوعية برامجهن التلفزيونية. أما فيما يخص مقدمي البرامج فأذكر Laurent Ruquier الذي يظهر بشعاً على الشاشة نسبياً، وهو أكثر جاذبية بكثير في الواقع. ويبدو Cauet كصبي قصاب في نظر Guy Carlier، ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نحصل على لقطات كبيرة لعينيه التي تكذب تماماً صلابة الشخصية. إن Cauet حنون (رخيص) مثل كوارع العجل. و Laurent Cabrol أجمل في الواقع منه خلف الكاميرا. لن أذكر أولئك الذين خلعت عليهم على العكس الشاشة الصغيرة المزايا باستثنائي أنا، إذ أنني للأسف أكثر جاذبية بكثير في التلفزيون من الحياة اليومية!

هل ينبغي للمرء أن يكون صورة عن آلان ديلون لكي يؤكد ذاته؟ بالتأكيد لا. ينبغي خصوصاً أن نقبل بأنفسنا على علاتها والعمل على تقويم بعض العيوب المورفولوجية إذا شعرنا بحاجة ملحة إلى ذلك. إن تقصير الأنف أو تقويمه أقل تكلفة بكثير من علاج نفسي يستند على فقدان زائف للثقة. في مقدور غالبية النساء العاملات دفع تكلفة عملية تجميل الثديين أو الإليتين. والصورة الذاتية أساسية في تنظيم الشخصية وفي المقدرة على إثبات الذات، فإثبات الذات هو إثبات وجود.

نصيحة المعالج النفسي

تذكر دائماً على وجه الخصوص المواضع الأربعة المتحركة التي من شأنها تجميل وجهك، وهي الأنف والشفتين والحاجبان وتجاعيد الجبين التعبيرية. احتسب لحركاتها أو لسكناتها وتعلم كيفية تحريرها بالقيام بالتمارين التي تجدها في الأجزاء التي خصصتها لهذه المواضع التشريحية الأربعة. هل تعلم لماذا غالبية ممثلي الفكاهة والضحك ينتهون إلى احتراف العمل في السينما؟ لأنهم يضبطون جمال حركات الوجه في غياب الجمال التجميلي. أضف أن الوجه المتحرك هو وجه مغوٍ عندما لا يكون جذاباً. وماذا ستعلم أيضاً؟ أن الوجه الجذاب يشيخ ببشاعة بعكس الوجه المغوي الذي يجود مع تقدم العمر.

الصوت

(نبرة الصوت موضع الإقناع)

إن نبرة الصوت هي التي تنقل الإقناع فيما وراء تركيب الخطاب الدفاعي. وإن الانفعال الذي تنقله نبرة الصوت أشد وقعاً من الانفعال الذي تنقله الكلمات نفسها. «يتحقق ما أؤمن به إذا حملت نبرة صوتي إيماني إلى صميم المخ الوجداني للآخر». ولكن كيف التوصل إلى الإيمان بذلك عندما يدعوك موكب الأفكار المشوشة إلى أن تبقى واقعياً ومتشائماً لئلا تقع من عليائك في حال.... لن يعلمك أحد استخدام درجات صوتك. إن النبرة الرتيبة هي القاعدة في المجتمع. وتعتبر النبرة المصطنعة من ابتكار ممثل رديء يرتدي بدلة زرقاء.

هل تحس نفسك قادراً على اجتياز حاجز يبلغ طوله مترين؟ نعم! يستطيع غالبية الناس المتمتعين بصحة جيدة اجتياز هذه المسافة. وإذا كان هذان المتران بين جرفين صخريين شديدي الانحدار فهل تحس أنك مازلت قادراً على اجتياز هذه المسافة القصيرة؟ كلا؟ لماذا؟ لا يوجد مع ذلك سنتيمتراً واحداً زيادة.

ولكن الخوف من السقوط عن علو عشرة أمتار قد غير المعطيات، أليس كذلك؟ فالانفعال المتولد هو عقبة لم يكن لها وجود على الأرض المستوية. تصور أن اجتياز هذه المسافة

على أرض مستوية هو قناعة نظرية، تركيب دفاعي وُضِع تحت جناح العقل الواعي. من جهة أخرى، تتوافق المسافة نفسها بين جرفين صخريين مع القناعة التي أضفي عليها الانفعال، تلك التي تحمل نبرة الصوت. ليست المعركة هي نفسها قط.

يستطيع المرء أحياناً إقناع محاوره لأن نبرة اليأس تُسقط جميع حواجزه الدفاعية. ويصطدم المرء أحياناً أخرى بجدار عندما ينقل الصوت نبرة الأمل. غالباً ما يكون الوقود الحقيقي للإقناع هو وقود الفرصة الأخيرة. ليست نبرة الصوت مقنعة قط بما فيه الكفاية إلا في فترة الأزمات.

ولكن هناك وسائل أخرى لتغيير نبرة الصوت وجعلها أكثر قدرة على التأثير. وما ينطبق على الصوت ينطبق أيضاً على النظرة والابتسامة والحركات التي تغير المظهر الفيزيائي أو طلة الشخص فتقوي من مقدرته على التواصل ومن قوته الإغرائية. سأعالج في كتابي المقبل الطريقة التشريحية النفسية لنمو الشخصية إذا وافق ناشري على ذلك.

إن الجسد واجهة من المزايا والعيوب والاستعدادات المختلفة والمتنوعة، وقلة قليلة منا تجني منها منفعة شرعية. تقع تبعة هذه الغلطة على لا شعور الجسد وفرط شعور العقل الخاضع للتحليل والتشريح والظروف والتعذيب وعلم النفس المبالغ فيه. فالجسد يعتبر في نظره كبديل وليس كمنتخَب بصفة كاملة. يمر طريق التوازن النفسي الذي تصبو إليه باندماج ترسيمة الجسد في أرضية الشعور. فامنح ذهنك جسداً!

obeikandl.com